

مقدمته

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الانسان وعلمه البيان وانزل القرآن بلسان عربي مبين ثم الصلاة و السلام على سيدنا محمد أفصح الخلق لسانا ، و أبلغهم بيانا و على آله و صحبه الأبرار الأطهار ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
أما بعد:

فهذه دراسة في ظاهرة لسانية لطالما كانت تستهويني و تستفزني حتى قبل أن أتعرف عليها وأخوض فيها بقلمي، كانت تغريني وتلفت انتباهي خاصة وأنا أتلو كتاب الله المبين فتستوقفني عبارات بتراكيبها غير المألوفة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٦) الانسان 6 فالفعل (يشرب) في الاستعمال المألوف يتعدى بنفسه وقد يقترن بحرف الجر (من) ولكنه في هذه الآية الكريمة تجاوز كل توقعاتي، فكثيرا ما كنت أقف مستقهما بل حائرا ثم أوصل تلاوتي مستأنسا باعتقادي أن الأسلوب القرآني أسلوب منفرد وكلام معجز وقد أعجز من كانت الفصاحة تجري على ألسنتهم و البيان ينبجس من كلامهم فكيف بمن بضاعته في البيان مزجاة.

ولأن التضمين من الأساليب الراقية في اللغة العربية و التي تتعدى المستوى المألوف إلى المستوى الإبداعي ولأنه من أبهى صور "شجاعة العربية" عند ابن جني فقد احتاج منا إلى شجاعة وعزم حتى نخوض عبابه ، باحثين عن أسراره سابرين غورا من أغواره .

ولقد لقينا ما لقينا من صعوبات في مسار بحثنا هذا وأغلبها يتعلق بطبيعة الموضوع إذ كثيرة هي الأبواب النحوية و البلاغية التي يتشابك التضمين معها كما أن الدراسات التي أفردت لمباحثته قليلة ومعظمها كان يستحضر الجدل الذي كان قائما بين علماء العربية القدامى وبخاصة الخلاف الذي كان قائما بين المدرسة البصرية و المدرسة

الكوفية وبين من كان يثبت ظاهرة التضمين ويسوق لها ما يسوق من الأدلة وبين من كان ينفي وجودها ويلقي في ذلك ما أمكنه من الحجج.

وكثيرا ما كنت أجد الطريق إلى الفهم الأعمق لظاهرة التضمين غير سالك فكنت أتوسل لتجاوز ذلك ببعض المراجع التي درست ظاهرة التضمين بشيء من التحليل والتدقيق وعلى رأسها كتاب (التضمين النحوي في القرآن الكريم للدكتور محمد نديم فاضل) الذي صاحبه في مختلف محطات البحث وبعض المقالات التي اختصت بدراسة ظاهرة التضمين وخاصة مقالة الزعبلوي حول التضمين في مجلة مجمع اللغة العربية كما أنني وجدت في كتاب (معاني النحو لفاضل صالح السمرائي) مادة ساعدتني على تجاوز مشكلة معاني حروف الجر التي لا يمكن تناول ظاهرة التضمين إلا متعلقة بها. وأما المنهج الذي سار عليه البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي، فقد توسلت لغرض وصف ظاهرة التضمين ومحاولة سل خيوطه من مختلف تشابكاته بظواهر لسانية لصيقة به ومن ثم حاولنا تلمس طريقة توظيف المفسرين لظاهرة التضمين في توجيه العبارات القرآنية وتفسيرها.

هذا وسنتناول في دراستنا ظاهرة التضمين في الأفعال دون غيرها من الوحدات لأنها أكثر تلبسا بها وسنحاول في ذلك تلمس الإجابة على إشكالية التضمين وعلاقته بالنحو و البيان، ثم دور السياق القرآني في تجلية خفايا هذه الظاهرة، ومن ثم سنبين حقيقة التضمين ونسعى للإجابة على إشكالية طبيعة التضمين؛ هل هو ظاهرة نحوية أم ظاهرة بيانية؟ وما السر في عدم وجود باب خاص بالتضمين في معظم كتب علم النحو وعلم البيان؟ كما سنحاول أن نخلص ظاهرة التضمين من تداخلها مع الكثير من الظواهر اللغوية كظاهرة تناوب الحروف و ظاهرة التعدية و اللزوم و بعض الأساليب المجازية ولقد ضيقنا من مجال البحث فجعلناه خاصا بالسياق القرآني إذ القرآن سقف البيان، الذي لا تطوله الألسن وهو كلام الله الذي لا تتقضي عجائبه، ولا سقف لبيانه ولا حد لمعانيه، وباختيارنا هذا أقصينا إمكانية تناول عبارات قد يداخلها اللحن أو يدونها

الضعف وذلك لأن بعض العبارات قد يختلف في أمرها فهي عبارات غير سليمة أي لم تحقق القابلية النحوية، أم هي صورة من صور التعابير الابداعية.

ولم يكن سبيل التضمين سالكا فكثيرا ما كنت أتتبع شعبة من شعبه فأخلص إلى سرابٍ بعدما كنت أظنني أنني قد أمكست بالخيط الناظم لهذه الظاهرة، وقد سلكت الطريق المفضي إلى أسرارها ، فكثيرا ما تجاوزت هذه الظاهرة كل توقعاتي فتسحبني إلى ما لم أكن أتوقعه.

ثم إن التضمين قد تجاذبته علوم العربية فترى له أطرافا في بعض أبواب النحو كما تجد له حضورا في أصوله، وتترأى له مكانة في البيان مميزة فيحار في تصنيفها أهل البيان بين الحقيقة و المجاز ولو ذهبنا إلى التفاسير فإن للتضمين كلمة الترجيح ودفة توجيه الآيات دلاليا.

ولأن ظاهرة التضمين تميزت بهذه الشبكة من العلاقات جعلنا دراستنا له على ثلاثة فصول ويتقدمها مدخل.

أما المدخل فقد خصصناه لتعريف التضمين لغة ثم تعريفه في علم العروض وعلم البلاغة خاصة في علم البديع.

ولقد خصصت الفصل الأول لدراسة التضمين النحوي وميزت بين النحو كآلية لإنتاج العبارات وآلية للتحليل والتفسير ثم حاولت استخلاصه من الأبواب النحوية التي يتداخل معها كتناوب الحروف وظاهرة التعدية واللزوم ثم بينت أثر التضمين في الأفعال. لذا جعلت هذا الفصل من مباحث ثلاثة وهي:

مفهوم التضمين النحوي، التضمين النحوي وتناوب الحروف ثم التضمين النحوي والتعدية واللزوم.

وأما الفصل الثاني فجاء للتضمين البياني فبعد تعريفه انتقلت إلى بيان الفرق بينه وبين أبواب علم البيان من حقيقة ومجاز، وكناية واستعارة ومجاز مرسل ثم وقفت على ظاهرة التضمين وشجاعة العربية، وقياسيته و فائدته.

فكان هذا الفصل من ثلاثة مباحث وهي:

مفهوم التضمن البياني إذ رمت تبيان حقيقته كما قام البيانون بتوصيفه ثم انتقلت تخلص التضمن من مختلف أبواب علم البيان وعلى رأسها الكناية و الاستعارة و المجاز المرسل وتناول المبحث الثالث كل من التضمن وشجاعة العربية، قياسية التضمن، وفائدته.

وأما الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن التضمن والسياق القرآني فبينت أنواع السياق بعد تعريفه ، ثم انتقلت إلى تعريف السياق القرآني وذكرت أنواعه وبعد ذلك خلصت إلى علاقة السياق القرآني بالتضمن، وختمت هذا الفصل بمجال تطبيقي وفي الأخير جعلت الخاتمة خلاصة لما توصلت إليه من نتائج .

مدخل

مدخل

إنّ التضمين من المصطلحات التي نجدها في مختلف علوم العربية؛ من بلاغة، ونحو، وعروض، وله دلالات متباينة مختلفة، بحسب تباين المجالات التي تتناولها هذه العلوم، واختلاف اهتماماتها، ومن أجل ذلك "فالباحث فيه إزاء موضوع واسع الأطراف، كثير المسالك"¹ ففي كتب العروض نجد هذا المصطلح في (باب عيوب القوافي)، أما في علم البلاغة فقد "ورد التضمين في قسمين رئيسيين من أقسام البلاغة العربية هما البيان والبدیع و قد أخذ كل منهما معنى خاصاً"² و هذا على الرغم من أنّ التضمين البياني لا نكاد نجد له ذكراً في كتب البلاغة بل كثيراً ما نجده في كتب التفسير و علوم القرآن.

ولو عدنا إلى كتب النحو فلن نجد لهذا المصطلح باباً خاصاً، أو عنواناً ينفرد به، بل سنجد مادته معروضة في عدة أبواب كباب (حروف الجر)، وباب (اللازم والمتعدي) ومن الجدير بنا ههنا التذكير بأن ثمة جمعا من النحاة لا يقولون أصالة بالتضمين.

و انطلاقاً مما سبق فإن الباحث في التضمين النحوي أو البياني هو أمام مادة متفرقة على أبواب مختلفة، فعليه قبل أن يدرسها جمع شتاتها. واستبانة الخيط الناظم لها. ولنترك الحديث عن هذه الظاهرة إلى الفصول المقبلة، ولنخصص هذا المدخل للحديث

¹ إبراهيم السامرائي : فقه اللغة المقارن، دار العلوم للملايين ، بيروت ، ط 3 ، 1983م ، ص201
² أحمد حسن حامد، التضمين في العربية بحث في البلاغة و النحو، الدار العربية للعلوم ، طبعة الأولى

عن التضمين في كل من علم العروض وعلم البلاغة، ونقتصر من علم البلاغة على علم البديع، وقبل الشروع في التنقيب عن هذا المصطلح لابد من الوقوف على المفهوم اللغوي للتضمين كي يكون لنا الأرضية التي سننطلق منها في عملية البحث.

المفهوم اللغوي للتضمين:

ورد التضمين في مختلف المعاجم اللغوية: القديمة منها و الحديثة تحت مادة (ضمن)، وبعودتنا إلى هذه المعاجم سنجد هذه الكلمة المعجمية تطلق على معان متعددة، فهذا ابن فارس في مقاييسه يقول: "الضاد والميم و النون، أصل صحيح، وهو جعل الشيء في شيء يحويه، من ذلك قولهم :ضمنت الشيء، إذا جعلته في وعائه...و المضامين ما في بطون الحوامل"¹

وجاء في لسان العرب "ضمن الشيء وبه ضمنا، و ضمانا كفل به وفي الحديث:" من مات في سبيل الله فهو ضامن على الله أن يدخله الجنة" أي ذو ضمان على الله...وضمن الشيء الشيء: أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع و الميت القبر...، و المضامين ما في بطون الحوامل من كل شيء...و الضامنة ما تضمنته القرى والأمصار من النخل."²

¹ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون -دار الفكر- ط 1979/1399، ج3/ص372.

² بن منظور :لسان العرب، دار المعارف -القاهرة، تحقيق نخبة من الأساتذة :عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، الجلد 4 ، ج 31 ،ص2610، انظر أيضا:الزبيد : تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط1965/1385، ج35، ص334

وجاء في المحكم والمحيط الأعظم: "المضمن من الأصوات ما لا يستطاع الوقوف عليه حتى يوصل بآخر... و الضمن والضمان و الضمنة و الضمانة الداء في الجسد من بلاء، و الضمانة أيضا الحَب. "1

ولو تركنا المعاجم القديمة ونقبنا في المعاجم الحديثة لوجدنا هذه الأخيرة قد أجملت ما ورد في المعاجم السالفة، فقد قال أصحاب المعجم الوسيط في هذه المادة: " (ضمن) ضمنا، وضمانة، أصابته أو لزمته علة، و (ضمن) الشيء الوعاء و نحوه جعله فيه، و(تضمن) الوعاء ونحوه احتواه و اشتمل عليه،... و الضامن الكفيل، و (المضمون) المحتوى و منه مضمون الكتاب"2

وأهم ما نلاحظه على مادة (ضمن) من خلال هذه النصوص المقتبسة من مختلف المعاجم؛ القديمة منها، والحديثة هو استعمالها المختلفة التي جعلتها تطلق على عدة معان وأهمها: " الكفالة، الاشتمال والإيداع، ثم الزمنة و العلة"3

وبعد هذا العرض العام لمختلف استعمالات و معاني "ضمن" التي هي المدخل المعجمي للفظة التضمين، سيكون بإمكاننا البحث عن المفهوم الاصطلاحي للتضمين، و ذلك لأن المعنى اللغوي يسبق دائما المعنى الاصطلاحي، ومنه يستمد شرعيته في

¹ ابن سيدة، المحكم و المحيط الأعظم، تحقيق: محمد الهداوي - دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، ط2000م ، ج8، ص217

² إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ج1، ص544، ص545

³ أنظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط1971/3، مج5، ص654

الاستعمال ولعل كل هذا سيسمح لنا في الانتقال إلى البحث عن المعنى الاصطلاحي للتضمين في علم العروض والبديع.

2/ التضمين العروضي:

يأخذ التضمين في علم العروض معنى مناسباً لمجال تخصصه فهو " علم بقوانين يعرف بها أوزان الشعر العربي"¹ فما ناسب هذه الأوزان فهو منه وما خالفها فليس من الشعر في شيء وفي هذا يقول ابن جني: " اعلم أن العروض ميزان شعر العرب وبه يعرف صحيحه من مكسوره فما وافق أشعار العرب في عدة الحروف الساكن و المتحرك سمي شعرا و ما خالفه فيما ذكرناه فليس شعرا وإن قام ذلك وزنا في طباع أحد لم يحفل به حتى يكون على ما ذكرنا"² ، والمتأمل في تعريف ابن جني يهتدي إلى الحدود الإجرائية التي توطر علم العروض، وهذا ما يبسر لنا البحث عن حقيقة التضمين العروضي، ولنبدأ بسرد بعض تعاريفه.

جاء في تعريفات الجرجاني: " التضمين في الشعر هو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به"³ و قال صاحب سر الفصاحة: "ومن عيوب القوافي أن يتم البيت ولا تتم الكلمة التي منها القافية حتى يكون تمامها في البيت الثاني... ومما يجري

¹ محمد عبد الرؤوف الماوي، التوقيف على مهمات التعريف، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر - بيروت، ط1، 1410هـ، ص512

² ابن جني، العروض، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم - الكويت، 1987/1407، ص55

³ علي بن محمد علي الجرجاني، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، 1405هـ، ص84

هذا المجرى بالتضمين وهو ألا تستقل الكلمة التي هي القافية بالمعنى حتى تكون

موصولة بما في أول البيت الثاني وذلك مثل قول النابغة الذبياني:

وهم وردوا الجفازَ على تميم *** وهم أصحاب يوم عكاظِ إيَّي

شهدت لهم مواطن صالحاتٍ *** وثقت لهم بحسن الظن مني"¹

ولو دققنا النظر في هذين القولين لألفينا الجرجاني واصفا لظاهرة التضمين من دون أن

يصدر فيها حكما بالقبح أو بالحسن ثم إن وصفه للتلاحم الموجود بين البيتين كان

عاما، على غير ما نلاحظه في تعريف الخفاجي، حيث حدد التعلق بين البيتين في

كلمة القافية، والتي لا يتم معناها إلا في البيت الثاني، ولقد ذكر التضمين ضمن عيوب

القوافي، وهذا ما نجده عند سواد علماء العروض.

فهذا أبو هلال العسكري يعرف التضمين بقوله: "التضمين أن يكون الفصل الأول مفتقر

إلى الفصل الثاني، و البيت الأول محتاج إلى الأخير ... وهو قبيح"².

وجاء في خزانة الأدب "قبح التضمين الذي هو من عيوب الشعر، وهو توقف البيت

على الآخر"³

ولا نكاد نجد فرقا بين علماء العروض حول مفهوم التضمين، بيد أن الخلاف واقع بينهم

حول ما إذا كان التضمين بهذا التحديد الذي وضعوه يعيب الشعر

¹ الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية

1402هـ/1982م، ص187

² أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعتين الكتابية والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد

أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية-بيروت 1406/1986، ص36

³ عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي و إميل بديع

يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت 1998، ج7، ص147

والحاصل هو أن قبح التضمين يعود إلى تصور علماء العربية لمفهوم البيت، والتضمين قد نسف هذا المفهوم، فـ" البيت من الشعر مشتق من بيت الخباء وهو يقع على الصغير و الكبير كالرجز و الطويل وذلك لأنه يضم الكلام كما يضم البيت أهله ولذلك سموا مقطوعاتها أسبابا و أوتادا على التشبيه لها بأسباب البيوت و أوتادها"¹ و بالتالي فالحكم على التضمين مرهون بالتصور الذي ارتضاه النقاد و العروضيون في تعريفهم للبيت الشعري فمتى تجاوزنا هذا المعنى تجاوزنا ذاك الحكم.

التضمين البديعي:

أخذ التضمين في علم البديع مفهوما مخالفا تماما لما رأيناه في علم العروض، فإذا كان في هذا الأخير عيب من عيوب القافية، و سمة قبح في الشعر، ويرغب الشعراء عنه، فإنه في علم البديع من محاسن الكلام، يقصده الشعراء أحيانا، و يرغبون فيه وفي هذا يقول ابن الأثير: " وهذا النوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة، وبين معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر"²

وقد اهتم علماء البلاغة والنقد بتحديد مفهومه، وتمييزه من غيره من عناصر البديع، وبحسب اطلاعنا فأقدم من ذكر التضمين هو ابن المعتز في كتابه الموسوم بالبديع

¹لسان العرب، مادة "بيت"، مج4، ج31، ص2610

²أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلبي (ابن الأثير)، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت - 1995 ج2 ص323

وفي هذا الصدد يقول صاحب الكليات: "وسماه ابن المعتز مخترعه الأول حسن

التضمين ووافقه قدامة وغيره وسماه الفخر الرازي في نهاية الإيجاز التلويح"¹

والملاحظ في هذا القول هو أن التضمين في علم البديع قد اصطلح عليه بعدة

مصطلحات، ثم إن مخترعه ابن المعتز لم يعرفه، بل اكتفى بإيراد مجموعة من الأمثلة،

نستشف منها مفهوم التضمين، كما حذا الثعالبي حذوه في كتابه يتيمة الدهر إذ يقول

في بعض شعر محمد بن العباس الخوارزمي: "وهذه لمع من تضميناته التي كانت

رشيقة، وطريقة أنيقة، يضعها في مواضعها ويوقعها أحسن مواقعها، ويفصح بها عن

اتساع روايته وكثرة محفوظاته فمنها قوله من قصيدة في عضد الدولة:

ولمّا أكثر الحساد فيه... وقالوا قد تغصّنت الخدود

أجاب الفضل عنه حاسديه... لأمر ما يسود من يسود

لأمر ما البيت لبلاء بن قيس الكناني"²

وإذا ما اكتفى هذان الناقدان بذكر أمثلة عن التضمين، فثمة من النقاد من اهتم كثيرا

بتحديد هذه الظاهرة البلاغية، ووضعوا لها بعض القيود التي توطّرها وتمييزها من

السرقات الشعرية، فهذا ابن رشيق وكأنه قد شعر بأن التضمين كثيرا ما تخفى حقيقته

¹ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، تحقيق عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت - 1998/1419، ص 463

² أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محي الدين، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة - 1956، ج 4/ص 214

عن بعض الشعراء ، فانظر إليه وهو يقول: "وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقب في العلم، ولا حذق بالصناعة، كجماعة ممن وسم في بلدنا بالمعرفة"¹ إن هذه العبارات تضع أيدينا على فائدتين؛ أما الأولى: فهي أن حقيقة التضمين قد تخفى عن كثير من الشعراء.

وأما الثانية: فهي أن هذه الظاهرة لا يجليها على حقيقتها إلا عالم فطن حذق بصناعة الشعر، ولعل كلمات ابن رشيق هذه ستلهب الفضول فينا لاستكناه حقيقة التضمين البديعي، والبحث عن هذا الذي يجعله خفيا عن معظم الشعراء.

خصص ابن رشيق للتضمين بابا منفردا، وسماه بـ"باب التضمين والإجازة" وقد عرفه قائلا: "فهو قصدك إلى البيت من الشعر، أو القسم، فتأتي به في آخر شعرك، أو في وسطه كالتمثل به ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب:

يا خاضب الشيب والأيام تظهره *** هذا شباب لعمر الله مصنوع

أذكرتني قول ذي لب وتجربة *** في مثله لك تأديب وتقريع

إنّ الجديد إذا ما زيد في خلق *** تبينّ الناس أنّ الثوب مرقوع²

و البيت المضمن في هذه المقطوعة هو الأخير إذ ينسب إلى إبراهيم بن إسماعيل البنوي أو النبوي، وقد مهد له بالبيت الثاني، فجاء به على سبيل الاستشهاد، وهذا ما

¹ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وتعليق: النبوي عبد الواحد

سعلان، مكتبة الخانجي-القاهرة- ط1: 1420/2000، ج2/ص719

²المرجع السابق: ج2/ص719

قلل من جودته، حيث يقول ابن رشيقي معلقاً على هذه الأبيات: " فهذا جيد في بابه
،وأجود منه لو لم يكن بين البيت الأول و الآخر واسطة؛ لأن الشاعر قد دل بذلك على
أنه متهم بالسَّرَقِ، أو على أن هذا البيت غير مشهور"¹
نجد صاحب العمدة في هذه العبارات يرسم للتضمين حدوداً، ليعرف بها ويجعل له
ضوابط، ليُنقِدَ بها، فيوضع بذلك داخل إطاره الخاص، فيتميز عن السرقات، فمن
شروط البيت المضمن الشهرة، ويحبذ أن ينسجم مع أبيات القصيدة حتى يبدو وكأنه
منها.

فإن لم يكن مشهوراً فعلى الشاعر أن يشير إلى أن البيت ليس من نظمه وإلا اتهم
بالسرقة أما إن كان مشهوراً ورغم ذلك أشار إلى أنه لغيره فهذا ينقص من جودته.
وما نراه على هذا الضابط هو أنه قد يحتاج إلى بعض الدقة، فمقياس الشهرة قد يختلف
من قوم إلى قوم، ومن عصر إلى آخر، فما كان مشهوراً قد يصبح مجهولاً، وما كان
مقبوراً، قد تحفر الأيام عنه فيغدو مشهوراً.

وإذا ما كان التضمين عند ابن رشيقي مقتصرًا على الشعر فإن ابن الأثير وسع إهاب
هذا المصطلح، ليشمل الأخذ من الشعر والقرآن والحديث النبوي الشريف
وفي ذلك يقول ابن الأثير: " فهو أن يضمن الآيات و الأخبار النبوية ،وذلك يرد على
وجهين أحدهما تضمين كلي و الآخر تضمين جزئي."²

¹المرجع نفسه: ج2/ص720

²ابن الأثير: المثل السائر، ج2، ص323

فالتضمين إذاً لا يقتصر على الشعر بل يتجاوزه، كما أنه ينقسم على قسمين: تضمين كلي وتضمين جزئي فأما الكلي فهو: " أن تذكر الآية و الخبر بجملتها"¹ وأما الجزئي فهو " أن تدرج بعض الآية و الخبر في ضمن كلام فيكون جزءا منه"² وأهم ما يقال عن التضمين البديعي هو أن البيت المضمن يشترط فيه الشهرة في أوساط البلغاء، فإن لم يكن كذلك فينبغي التنبية عليه، وإلا عدّ من السرقات، ثم إن التضمين يحسن كلما جاء بفائدة زائدة، وأما إذا كان الكلام المضمن مأخوذاً من القرآن أو الحديث، فقد سماه بالاعتباس وفي ذلك يقول: "وأما الاعتباس، فهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه كقول الحريري: "فلم يكن (إلا كلمح البصر أو أقل) حتى أنشد فأغرب"³

خلاصة

وحاصل القول في التضمين البديعي والتضمين العروضي، هو أن هذا الأخير عد من عيوب القوافي، ويزيد العيب فيه شدة كلما زادت حاجة القافية إلى البيت الذي يليها، ويقبل حدة كلما نقصت الحاجة، ويعود هذا العيب إلى التحديد الذي وضعه العروضيون للبيت الشعري، ومتى ما تجوز هذا الحد، انتفى ذلك العيب. وهذا بغض الطرف عن الطائفة التي لا ترى في التضمين عيباً.

¹ المرجع السابق: ج 2 ، ص 323

² المرجع نفسه: ج 2 ، ص 323

³ المرجع السابق: ج 4 ، ص 115

أما التضمين البديعي فهو من محاسن القول، وقد اختلف في تحديده فمنهم من ضيق نطاقه وقصره على الشعر ك"القزويني"، ومنهم من جعله في النثر والشعر ووسع إهابه فشمّل الاقتباس و التلميح وإيراد المثل، ك"النويري".

هذا وقد اهتم النقاد به كثيرا فجعلوا له ضوابط تعصمه من الالتباس بالسرقات، وأهمها الإشارة إلى المضمن إن كان غير مشهور.

وكي لا يسقط التضمين في محض التقليد والتكرار، جعل للتضمين فوائد يصبو إلى تحقيقها ومنها **توكيد المعنى** أن يفيد نكتة بلاغية، كالتورية

الفصل الأول:

التضمين النحوي

الفصل الأول

المبحث الأول : مفهوم التضمين في النحو

المبحث الثاني : النيابة والتضمين

المبحث الثالث : التضمين و ظاهرة التعدية

واللزم

المبحث الأول : مفهوم التضمين النحوي

عرفنا في الفصل المدخلي أن لفظ التضمين يطلق في اللغة على معان متعددة، وأهمها الإيداع أو جعل شيء داخل شيء آخر، ولم يكد مصطلح التضمين يخرج عن هذا المعنى اللغوي في مختلف علوم العربية التي حاولنا في الفصل السابق أن نبين كيف استعملت هذا المصطلح.

ولأننا سوف نخصص هذا الفصل للتضمين النحوي علينا الاعتراف مسبقاً أنه "ليس أمراً هيناً تتبع المصطلحات ورصد تحولاتها"¹، فالمصطلح قبل أن يدخل سوق الرواج كان فكرة نمت في بيئة معرفية معينة، ولفهمه فهما دقيقاً علينا الرجوع إلى اللحظات الأولى التي استعمل فيها، ولعل هذا ما يؤكد عبد الغاني بارة إذ يقول: "فالمصطلح ينتمي إلى جهاز مفهومي ومحض معرفي تشكل في كنفه قبل أن يستوي مصطلحاً/مفهوماً، ينتهي به الأمر في مجال الاستعمال والممارسة"²

وزيادة على العلاقة الوطيدة الموجودة بين المصطلح ومحضه المعرفي الذي تشكل فيه، فإن مصطلحنا مركب " والمركب لا يعلم إلا بعد العلم بمفرداته لا من كل وجه بل من الوجه الذي لأجله يصح أن يقع التركيب فيه"³ ومن أجل ذلك ارتأينا أن نقدم بين يدي هذا الفصل بكلمة موجزة حول علم النحو فنسترشد بها لفك شفرة مصطلح التضمين النحوي وذلك بمحاولة الوقوف على الزاوية التي ينظر من خلالها النحوي إلى ظاهرة التضمين.

¹ عبد الغاني بارة: الهرمينوطيقا و الفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، الدار العربية للعلوم _بيروت_ الطبعة

الأولى: 2008/1439، ص 567

² المرجع نفسه، ص 130

³ محمد بن عمر بن الحسين الرازي: المحصول في علم الأصول، تحقيق طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية _الرياض_ ط 1 : 1400هـ ، ج 1/ص 91

1- مفهوم النحو:

إن النحو هو من العلوم الجليلة ودعامة العلوم العربية، وهو عدة المستعرب إن رام فصاحة فقد عرفه ابن جني بقوله "هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره... ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة."¹ لغاية النحو إرشاد غير العربي إلى طريقة كلام العرب وإن زاغ اللسان عنها رد به إليها، ويعرفه صاحب المستوفى بقوله "النحو صناعة علمية ينظر لها صاحبها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألف بحسب استعمالهم، لتعرف النسبة بين صيغة النظم، وصورة المعنى، فيتوصل بإحدهما إلى الأخرى"²

إن أهم ما نستبينه من خلال هذين التعريفين هو أن النحو صناعة علمية، والصناعة هي: "العلم الحاصل بالتمرن، أي أنه قواعد مقررة، وأدلة محررة"³ على هذا فهو مجموعة من القواعد المستنبطة من كلام العرب، تحفظه من الانحراف عن المستوى الصوابي العام الذي يجعل من الكلام كلاما عربيا، لا يخرج عن سمت كلامهم، فالسمت الفصيح الذي قصده ابن جني في تعريفه للنحو إنما هو السمتمت الصوابي.

وثمة مسألة أخرى نقف عندها في التعريف الثاني وهي أن هذه القواعد تنظر إلى تلك المناسبة الموجودة بين "صيغة النظم" و "صورة المعنى" فليس النحو آلة لإنتاج وتوليد

¹ أبو عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت_لبنان، ط2/ 1424هـ - 2003، ج1، ص88

² أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي: فيض نشر الإشراف من روض طي الاقتراح، تحقيق وشرح محمود يوسف فجال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الامرات العربية المتحدة - دبي، ط1/ 1421هـ - 2000م، ج1، ص234

³ المرجع نفسه: ج1، ص218

التراكيب العربية فحسب بل هو من الآلات المتوسلة لتحليل وفهم كلام العرب و لعل هذا ما يؤكد ابن خلدون بقوله: "وخشي أهل العلوم منهم أن تقسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها، فينغلق القرآن و الحديث على الفهوم، فاستتبطوا من مجاري كلامهم **قوانين** لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات و القواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام و يلحقون الأشباه بالأشباه"¹

فبالنحو يفهم القرآن الكريم والحديث الشريف، لأنهما على سنن كلام العرب، وإن ارتقيا عنه بيانا، وفضلا عنه شرفا ومكانة، كما أنه قوانين ضابطة للاستعمال الصحيح للغة، "والقوانين في كل صناعة :أقويل كلية أي جامعة، ينحصر في كل واحد منها أشياء كثيرة، مما تشتمل عليه الصناعة حتى يأتي على جميع الأشياء، التي هي موضوعة للصناعة، أو على أكثرها وتكون معدة، إما **ليحاط** بها ما هو من تلك الصناعة، لئلا يدخل فيها ما ليس منها، أو شذ عنها ما هو منها، وإما **ليمتحن** بها ما لا يؤمن أن يكون قد غلط فيها غلط، وإما **ليسهل** بها تعلم ما تحتوي عليه الصناعة وحفظها"² وقد اشتمل علم النحو على الأغراض الثلاث المتوخاة من قوانين الصناعة؛ فبالنحو نميز التراكيب العربية من غيرها، وبه نفرق بين الاستعمال الصائب و الخطأ، ويتعلم غير الفصيح الكيفية التي ينحوها ليلتحق بالفصيح.

¹ عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة** ، دار الكتب العلمية بيروت_ لبنان ، ط9، 1467هـ/ 2006م، ص470

² عبد الرحمن الحاج صالح: **بحوث ودراسات في علوم اللسان** ، موفم للنشر_ الجزائر، 2007، ص83

ومجمل القول هو أن النّحاة نظروا في طبيعة النظام التركيبي للغة والعناصر التي يتشكل منها من حيث الأسس التي تحكمها والمعاني التي تتمثل بها، وبعد أن لاحظوا أن هناك أنماطاً تركيبية معينة تتحكم في نظام اللغة التركيبي جرّدوا منها هيكلًا نظريًا، يُعدّ قواعد نحوية يقاس عليها للتوليد/انتاج والتحليل/الفهم، وتمثّل النظام المطرد في اللغة.

ولكن طبيعة اللغة الإنسانية التي لا تخضع للأحكام المطلقة واجهتهم بأنماط أخرى تقلّ اطراداً، فالقاعدة ضابط مستتب من كلام العرب، واستعمالات العرب سنة متبعة تخضع لسultan العرف، وبين الضوابط النحوية و السنن العرفية وفاق في الأغلب وخلاف في حالات أخرى قليلة، فهذه الحالات القليلة مع ما ألفوه في التعبير القرآني من خرق لقوانينهم وقواعدهم، ما دفع النّحاة إلى ابتكار بعض الآليات التي تُدخل تلك التعابير الموافقة للعرف الاستعمالي، المخالفة لأصولهم التي أصلوها، ضمن تلك الضوابط والقواعد التي بني عليها الهيكل النظري للنحو، ومن هذه الآليات آلية العدول و الاستصحاب ، وآلية التوجيه النحوي، و ثمة من النحاة القدامى و المحدثين من أدرج التضمين ضمن هذه الآلية ولنترك التفاصيل في هذه النقطة إلى موضع آخر من هذا الفصل، ولنحاول الآن رصد أهم النصوص التي حاولت وصف هذه الظاهرة.

2- بدايات ظاهرة التضمين النحوي:

يعد ابن جني أول من: "عني بالتضمين...كشفه، وأوضحه في أمثلة كثيرة"¹ ولأن نصه في التضمين يعتبر من أقدم النصوص الواصفة لهذه الظاهرة بشيء من التفصيل، والتعليل، بدا لنا من الأجدر أن نقرأه قراءة تحليلية حتى إذا ما استنبطنا منه ما أمكننا استنباطه من معلومات أعدنا تركيبها وفق ما يتناسب وموضوعنا.

وكي لا يبتسر النص من سياقه العام فلا بد من الإشارة إلى أن نص التضمين إنما ورد في: "باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض" فبعد أن علق على ظاهرة تقارض الحروف حيث جعلها مجانية للصواب، وكثيرا ما يتلقاها الناس بسذاجة، راح يبين حقيقة التضمين إذ يقول: "اعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف، والآخر بآخر فإن العرب قد تتوسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه. وذلك كقول الله عز اسمه: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نساءكم" (البقرة 187) وأنت لا تقول: رفث إلى المرأة وإنما تقول: رفث بها، أو معها؛ لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي أفضيت بـ"إلى" كقولك: أفضيت إلى المرأة، جئت بـ"إلى" مع الرفث؛ إيذانا وإشعارا إنه بمعناه"²

¹شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف _مصر_ ط2، 1975، ص275

²أبو الفتح عثمان ابن جني: الخصائص، تحقيق: د/عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية بيروت_لبنان، ط2:

2003_1424، ج2/ص92

أهم ما نستجليه من هذا النص أربع نقاط:

أولاً: يجب أن ينتمي الفعل المتضمّن والمتضمن إلى حقل دلالي واحد

ثانياً: يجب أن يكون أحد الفعلين يتعدى بحرف والآخر بغيره

ثالثاً: إذا تحقق الشرطان الأولان فقد تتوسع العرب في وضع أحد الفعلين موقع الآخر.

لا تحتاج هذه النقاط الثلاث إلى فضل تدبر وتأمّل حتى تستخلص من النص، بل تتبادر

إلى العقل من خلال أول قراءة وليست نصوص ابن جني من النصوص التي تقرأ بهذه

السطحية، بل تحتاج إلى تأمل عميق، ونظر دقيق حتى تتفتح للقارئ عن خبئها.

ولو بدأنا بالنقطة الأولى والثانية فلا مناص من الإشارة إلى أن ابن جني يعد التضمين

دليلاً على وجود الترادف في اللغة، ويرد على أولئك الذين يرفضون وقوعه في اللغة

العربية¹

إن هذا الموقف ليثير في أذهاننا تساؤلات عدة، فما الذي يجعل فعلين مترادفين في

المعنى يتعديان بحرفين مختلفين؟ بل ما المانع من تعديتهما بحرف جر واحد إن كانا

يدلان حقا على معنى واحد؟ ثم أي نوع من أنواع الترادف كان يقصده ابن جني؟

ليس بوسعنا الاجابة بطريقة حاسمة عن هذه الأسئلة، ذلك لأنها تحتاج لبحث مستفيض

ومنفرد، غير أن ما يمكن الإشارة إليه هو أن ابن جني قد لا يقصد في هذا السياق ما

¹ انظر المصدر نفسه، ج2/ص94

يعرف بالترادف التام total synonymy عند أولمان ولقد وضع شرطين لتحقق هذا

النوع من الترادف وهما: " أولهما: قابلية التغيير في جميع السياقات

وثانيهما: التطابق في كلا المضمونين الإدراكي والعاطفي.

وبناء على ذلك فإن الكلمات التي يمكن أن توصف بأنها مترادفة إنما هي تلك التي

يمكن أن تُستبدل إحداها بالأخرى في أي سياق دون تغيير طفيف في المضمون

الإدراكي أو المضمون العاطفي"¹

ولو عدنا إلى قول ابن جني لوجدناه يؤكد هذه النقطة بما لا يدعو إلى الشك، وبخاصة

في قوله: "لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء" فإن ورود لفظة "هنا" في النص

لتدل على وعي ابن جني بأن "الرفث" جاء في معنى "الإفضاء" في هذا السياق وليس

في كل الحالات.

إجمالاً قد يخفى عنا قصد ابن جني، ما لم نحد وبدقة ماذا يقصد بالترادف ولكننا

نقول بما يراه فاضل صالح السمرائي من أن "لا بد أن يكون لكل تعبير معنى، إذ كل

عدول من تعبير إلى تعبير لا بد أن يصحبه عدول من معنى إلى معنى ، فالأوجه

التعبيرية المتعددة، إنما هي صور لأوجه معنوية متعددة"²

¹ محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الاسلامي، بيروت- لبنان ،

ط2: مارس 2007، ص407

² فاضل صالح السمرائي: معاني النحو، شركة العاتك لصناعة الكتاب، ج1/ ص9

ولعل ابن جني في نصه هذا كان يقصد ما قصده ابن تيمية في استعمال الألفاظ المتقاربة، حيث يقول "ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن"¹

فإن كان الأمر كذلك فليس بين فعلي التضمين ترادف تام بل تقارب شديد في المعنى أو أنهما ينتميان إلى حقل دلالي واحد، وهذا ما يقره الزعبلوي معلقاً على نص ابن جني حيث يقول: "إذا عدنا إلى ما أورده ابن جني من الشواهد برهنا على صحة ما ذهب إليه في هذا الموضع من الخصائص و المحتسب، لاحظنا أن الفعل الذي استعير له الحرف الجديد ليس في معنى الفعل الذي استعير منه هذا الحرف، ولا استعمل في معناه وحده، لكن بين المعنيين من المناسبة ما قد يصل إلى حد انتمائهما إلى جنس واحد"²

نخلص من كل هذا إلى أن التضمين لا يكون إلا بين فعلين متقاربين دلالياً، ويكونان متعديين بحرفين مختلفين، فيكون الحرف المذكور دالاً على الفعل المتضمن.

¹ ابن تيمية: دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، تحقيق محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط2، 1404هـ/1984م، ج1، ص96

² صلاح الدين الزعبلوي: التضمين، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً، المجلد 55، ج1/ص70

و يجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن لفظة "العرب" في قول ابن جني: "إن العرب قد تتوسع فتوقع...". لا يقصد بها كل من يتحدث باللسان العربي بل هم أولئك الذين يحتج بلغتهم، فلو عدنا إلى كتابه **الخصائص** لوجدنا هذه اللفظة مكررة واحد وسبعين ومائة مرة، وحيثما وردت إلا ودلت على أولئك الذين يوثق بلغتهم، وينتهي سمت كلامهم. على هذا فالتضمين من سنن العرب. بل: "إنه فصل في العربية لطيف، حسن يدعو إلى الأنس بها و الفقاهاة فيها."¹ وهو جار على سنن العرب الفصحاء فصاحة سليقية.

3- تطور مفهوم التضمين النحوي:

أ- عند المتقدمين

يعرفه الزمخشري كما جاء في الأشباه و النظائر للسيوطي بقوله: "ومن شأنهم أنهم يضمنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله مع ارادة معنى المتضمن"²

ويعرفه ابن هشام بقوله: "قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضمينا"³

¹ ابن جني : المصدر السابق، ج2، ص94

² جلال الدين السيوطي: الأشباه و النظائر في النحو، اعتنى به محمد فاضلي، دار أبحاث للترجمة و النشر والتوزيع _الجزائر_ ط1: 2007، ج1/ص116

³ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتاب الأعراب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر ة التوزيع، القاهرة، ج2/ص341

الزركشي: "وهو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء، وفي الأفعال، وفي الحروف... وأما الأفعال فإن تضمن فعلا معنى فعل آخر، ويكون معنى الفعلين جميعا؛ وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف، فيأتي متعديا بحرف آخر ليس من عادته التعدي به، فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل، ليصح تعديه به"¹

وقال السيد: في حاشيته على الكشاف: "والتضمين أن يقصد بلفظ فعل معناه الحقيقي و يلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ويدل عليه بذكر شيء من متعلقاته"²

الأشموني: "التضمين إشراب اللفظ معنى لفظ آخر وإعطاؤه حكمه لتصير الكلمة تؤدي مؤدى كلمتين... وهو كثير"³

الصبان: "فالأولى أن يقال التضمين إلحاق مادة بأخرى في التعدية واللزوم لتناسب بينهما في المعنى أو اتحاد"⁴

ويقول ابن تيمية: "و العرب تضمن الفعل وتعديه تعديته، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض"⁵

¹الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا_بيروت ، ج3/ص211

²أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، مع : حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين الحسيني الجرجاني، انتشارات أفتاب_تهران_دت ، دط، ج1/ص126

³حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد ، المكتبة التوفيقية ، دط ، ج2/ص138 ، ص139

⁴المرجع نفسه: ج2/ص138

⁵ابن تيمية: المصدر السابق، ج1، ص96

وجاء في الكليات: "التضمين هو إشراب معنى فعل لفعل ليعامل معاملته وبعبارة أخرى:

هو أن يحمل اللفظ معنى غير الذي يستحقه بغير آلة ظاهرة"¹

مما يجدر الإشارة إليه قبيل بدأ تحليل هذه التعاريف هو أننا قد اعتمدنا على المقياس الزمني في ترتيبها وذلك بغية تتبع المراحل التي مر بها هذا المصطلح، ولعلنا إن عدنا إلى وصف ابن جني لهذه الظاهرة اللغوية لألفيناه مقتصرنا على الأفعال المتعدية بحرف، أما الزمخشري فقد وسع من إهاب التضمين فجعله شاملا لكل الأفعال، ليأتي بعده ابن هشام فينتقل بالمصطلح من دائرة الأفعال إلى دائرة أوسع وأشمل فيستعمل صيغة "اللفظ"، وهذه الصيغة تستغرق كل أنواع الكلمة من فعل واسم وحرف، وربما هذا الوصف هو الذي سيشرح أغلب من جاء بعده لانتقاء الألفاظ الدالة على استغراق الحد لأنواع الكلمة. فهذا الزركشي يستعمل لفظة " الشيء " ثم يصرح بعد ذلك مباشرة فيقول بأن التضمين حاصل في الحروف والأسماء والأفعال، أما الأشموني فيستعمل مصطلح " اللفظ " وأما الصبان والأمير فيوظفان مصطلح " مادة".

وبناء على هذا التحليل البسيط سيكون بالإمكان تحديد مسار التطور المرحلي لظاهرة التضمين، الذي بدأ بالفعل المتعدي بغير حرفه المعهود، ولعل هذا ما جعل ظاهرة التضمين لا تكاد تعرض إلا وهي متعلقة بظاهرة تناوب الحروف لأدل على ذلك أن وصف ابن جني لظاهرة التضمين كان تحت باب "باب في استعمال الحروف بعضها

¹ أبو البقاء: الكليات، ص 266

مكان بعض"، ثم لو عدنا إلى مختلف كتب تفسير القرآن الكريم لوجدنا هاتين الظاهرتين تتنافسان في توضيح وتبيان معاني الآيات، على أن إثبات إحداها يقتضي رد الأخرى وفي هذه النقطة تفصيل نرده إلى الصفحات المقبلة.

ولو عدنا الآن إلى التعريفات السابقة، وأردنا تصنيفها لأمكننا تقسيمها على طائفتين:

الطائفة الأولى تشمل كلا من ابن جني والزمخشري وابن هشام، وابن تيمية وهذه الطائفة تصف ظاهرة التضمن في مجالها التداولي، باعتبارها سنة من سنن اللسان العربي، وآلية يتوسل بها لفهم كلام العرب وبالتالي كلام الله عزّ وجل، ونستنبط ذلك من خلال صيغ الأفعال الواردة في تعريفاتهم نحو: (العرب تتوسع، أو يضمنون أو يشربون) والفاعل في هذه الصيغ هم العرب ولكن ليس أي عرب بل أولئك الذين يحتج بلغتهم. وأما **الطائفة الثانية** فتضم الشراح وأصحاب كتب التعريفات، فهذه الطائفة كانت تعرف مصطلحا ولا تصف ظاهرة في مجالها التداولي لذلك وجدناهم يستعملون صيغا تفيد العموم واستعمل المصادر إشارة للظاهرة دون اعتبار لفاعلها وكثيرا ما نجدها مسبوقة بذكر المصطلح نحو: "التضمن هو إشراب، إلحاق، إعطاء"

ب - عند المتأخرين:

لو تركنا الآن تعريف القدامى للتضمين وانتقلنا إلى تعريفات المحدثين لهذه الظاهرة لا نكاد نجد فيها جديدا فهذا الزعبلوي يعرفه بقوله: "إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطائه حكمه. فإذا كان اللفظ فعلا تصرف في اللزوم والتعدي تصرف الفعل الذي أشرب معناه. فقد يكون الفعل لازما فيتعدى بالتضمين، أو يكون متعديا فيلزم، أو يستمر لازما فيعدل به عن حرفه إلى حرف آخر"¹

وجاء في قرار مجمع اللغة العربية " التضمين أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطى حكمه في التعدية و اللزوم"²

ولو تأملنا هذين التعريفين أو غيرهما من تعاريف المحدثين فلا تخرج عما أقره القدامى وحتى لو عدنا إلى تعليقاتهم وتحليلاتهم فلا نجد فيها جديدا ولسنا نقول بالعييب في ذلك، بل العيب في إعادة طرح ذات الأسئلة التي طرحها الأوائل، منها تساؤلهم عن التضمين هل هو قياسي أم سماعي؟، وهل هو مجاز أم حقيقة أم يجمع بينهما؟ وهل الأولوية له في تخريج بعض الشواهد أم لتناوب الحروف؟ ولم يفصلوا الأمر في هذه الإشكالات، ولا جمعوا كلمتهم على رأي واحد، يسترشد به ويخرج النحو من تلك البؤر الجدالية التي تخبط النحاة فيها دهرا.

¹صلاح الدين الزعبلوي: التضمين، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة المجمع العلمي العربي سابقا،

مج/55، ج 1، ص 61

²عباس حسن: النحو الوافي ج2، ص594

و ثمة من ذهب إلى إنكار ظاهرة التضمين فهذا محمد حسن عواد يقول: "ويبدو لي أن مسألة التضمين لا أساس لها ، لا دليل عليها ، ولا حجة لأصحابها ، وأحسب أن ما اندرج تحتها من شواهد ، يؤول إلى جهة من جهتين : إما أن تكون هذه الشواهد مقحمة في باب التضمين إقحاما ، و إما أن تندرج تحت مبحث دلالة الألفاظ"¹

وفي الحقيقة نجد في هذا الكلام شيئا من التناقض فادعاء اقحام الأمثلة في باب التضمين هو في حد ذاته اعتراف بقيام هذا الباب.

و اما أحمد أسعد علي فهو يرى أن التضمين حكاية تعلقة بظاهرة التعدي واللزوم والتي هي مظهر من مظاهر قلق العربية وهو يقول في ذلك "....وكذلك انتهى بهم الاجهاد العقلي و التفكير الطويل إلى ما دعوه بالتضمين النحوي ، وهو بدون شك افتراض قدره النحوي ليعلل به هذه الظاهرة الغامضة...وهنا نقص حكاية التضمين كما نتصورها .

لما أخذ النحوي يحدد مفاهيم الأدوات وانتهى إلى أن (على) تفيد الاستعلاء و (في) تفيد الظرفية و (الباء) الالصاق. اعترضته أمثلة لا يمكن أن تخرج على معانيها أو خصوصياتها فكان معقولا (وهو لا يقدر بأن للعربية أدوارا عاشت فيها فتكون مختلفات) أن يقدر شيئا آخر فقد قدر التضمين و اقتنع به واطمأن إليه في كثير من اليقين...و الذي عندنا من أمره أنه وإن كان تكلفا لاغيا في أوله، فقد عاد وله محل من الحاجة على أن يصطنع بمقدار من الفصاحة"²

¹ محمد حسان عواد : تناوب حروف الجر في لغة القرآن ، دار الفرقان ، ص58

² أحمد أسعد علي : تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي ، دار السؤال للطباعة و النشر -دمشق ، ط 3 ، 1406هـ / 1985م ، ص، ص،

ولم يتوقف الدرس النحوي عند تلك الحدود بل راح يثير قضايا أخرى من مثل القابلية النحوية للجمل التي تحتوي ظاهرة التضمين، بل ذهب بعضهم إلى القول أن العبارة الواحدة يصدق الحكم عليها بالصواب و الخطأ، وهذا باعتبار قائلها إن كان مستبحرا في اللغة أم هو من العوام¹.

وإحياء ذات الجدل الذي كان قائما لحظة خلق المنظومة المصطلحية التي أصبحت تمثل الجهاز المفهومي الذي شكل الأنظمة المعرفية النحوية، ثم العيش في حدوده، ليتحول إلى سلطة آمرة أو وسيلة للاستدلال على صواب رأي أو موقف أمر غير مجد ويجدر بنا التفريق بين سلطة التراث وفعاليتها وبين أن نعيد تأويله مشاركة وتفعيلا. ويبدو لي بناء على هذا أن أي قراءة للتراث تستدعي التجرد من سلطة الجاهز الذي هو أصلا الأجوبة التي شكلت المنظومة المعرفية آنذاك، وعملية الاجترار لا تجعل التراث إلا مواتا، ولا يجب الانقطاع عنه بل إعادة قراءته، وتحيينه عبر مساءلته حوارا وتفاعلا.

هذا ولو عدنا الآن إلى تعريفات القدامى و المحدثين على السواء سنجدهم ينطلقون في وضعهم حد التضمين من مقدمة، هي عندهم شبه مسلمة نحوية، ومفاد هذه المقدمة هي أن الفعل لا يكون إلا لازما، أو متعديا بحرف جر خاص، أو متعديا بنفسه، ومتى ما خرج الفعل عن الاطار الذي وضع فيه إلى إطار آخر هرع النحوي إلى بعض آليات

¹انظر: عباس حسن النحو الوافي، ج2، ص586، 585

التأويل، كالعَدول و الرد، وهذه الآليات جعلها تمام حسان ضمن ما سماه بقواعد التوجيه النحوي ، وجعل التضمين ضرباً من العَدول بالجملة عن الأصل فجعله وجهاً من أوجه التوجيه التأويلي، وفي هذا الصدد يقول: " وأصل الأصول بالنسبة للجملة هو الافادة... ولكن العَدول عن هذا الأصل أي النمط يكون بالاستتار، أو الحذف أو الزيادة أو التقديم والتأخير أو التضمين..."¹

ومن الأمثلة التي استشهد بها تمام حسان في هذا المجال قوله تعالى: " فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم" حيث لاحظ أن هناك تضارباً بين النص و النمط من جهة وبين النص و القاعدة النحوية من جهة أخرى ، وذلك لأن الفعل هوى متعد بنفسه، وقد جمع لهذه الآية الكريمة ثلاثة تخريجات: فمنهم من قال بزيادة "إلى" ومنهم من ضمن "تهوى" "تميل" ومنهم من جعلها لغة، وبعد ذلك يعلق تمام حسان قائلاً: " فهذه ثلاثة تخريجات وردت في سياق التوفيق بين عبارة ممتعة نحويًا و بين أنماط وقواعد استجد بها النحاة لتبرير القراءة وهي سنة متبعة لا يضيرها أن تخالف أصول النحاة وقواعدهم"²

ونخلص مما سبق إلى أن ظاهرة التضمين ظاهرة معقدة بل هي إشكالية نحوية وأقصد بالإشكالية ههنا معناها الفلسفي أي: "منظومة من العلاقات التي تتسجها، داخل فكر

¹تمام حسان: الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو - فقه اللغة - البلاغة، عالم الكتب،

1420هـ/ 2000م، ص143

²تمام حسان : المرجع نفسه، ص215

معين (فكر فرد أو فكر جماعة)، مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل، -من الناحية النظرية- إلا في إطار حل عام يشملها جميعاً¹

وما قادنا إلى القول بأنه اشكالية نحوية هو ارتباطه بظواهر نحوية ما زالت إلى يومنا هذا مجالاً خصباً للبحث كحروف الجر ومعانيها وظاهرة التعدية واللزوم، وهذا في مجال النحو واشكالية الأصل والفرع وهذا في أصول النحو، وإذا تجاوزنا هذين المجالين سنجد التضمنين يشغل مساحة في علم البيان وهذا ما أهله لأن يفرض وجوده في كتب التفسير. ولأننا خصصنا هذا الفصل للتضمنين النحوي، سنحاول أن نبين علاقته بحروف الجر ثم علاقته بظاهرتي التعدية واللزوم، وهذا في المبحثين المقبلين.

المبحث الثاني : التضمنين وتناوب الحروف

إن استعمال حروف الجر لمن الأمور التي تحتاج إلى تدبر طويل ودربة ودراية عميقة للعربية، ذلك أن الدقة في التعبير والقدرة على أداء المعاني وامتلاك ناصية اللغة يعتمد على مدى عمق معرفتنا لمعاني هذه الحروف وإدراك مواقعها والإصابة في تعيينها، وقد يستعصي علينا أحياناً التحقق من صحة اختيارنا للحرف المناسب لتصريف

¹محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية انظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات

الوحدة العربية، الحمراء بيروت، ط7، 2004، ص103

الفعل في معنى من معانيه، فنضطر بذلك أن نعود إلى المعاجم وكتب النحو، وكتب التفسير ومختلف كتب الأدب؛ نثره وشعره.

وبسبب هذه المكانة المتميزة التي احتلتها هذه الحروف في الدرس اللغوي، وحرص العربي على الدقة في التعبير اهتم علماء العربية القدامى و المحدثون بمدارستها والتفقه فيها أكثر، فحاولوا إحصاء معانيها، وضبط سياقات ورودها مع الأفعال المناسبة لها، فاتسع القول في بابها، وتشعبت مسالكه، حتى لم يقدر علماء العربية أن يقولوا كلمة جامعة فيها، أو يضعوا لها ضوابط بارزة يُسترشد بحدودها ومعالم يستهدى بها.

وفي هذا الصدد يقول أحد أعضاء مجمع اللغة العربية: "...وكان موقف علمائنا الأوائل و سلفنا الفاضل في هذه القضية - نيابة حروف الجر عن بعضها بعضا- كموقفهم من أغلب قضايا العربية فلم يتفقوا عليها، ولم تلتق كلمتهم على رأي واحد فيها وانقسموا فريقين:

الفريق الأول: جمهور نحاة الكوفة ومن رأى رأيهم...وقد سلم هذا الفريق بدخول حروف الجر -أو حروف الصفات- بعضها مكان بعض.

الفريق الثاني : جمهور نحاة البصرة الذين يقصرون كل حرف من هذه الحروف على معنى أصلي واحد"¹

¹حسين شرف: ظاهرة دخول حروف الجر بعضها مكان بعض، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج55، نوفمبر

ولأن مسالك باب حروف الجر متشعبة نرى الاكتفاء منها بما يمت بصلة قريبة لصلب موضوعنا، ولنبدأ في ذلك بتعريف الحرف.

1- تعريف الحرف:

إن أول ما جلب انتباهنا ونحن ننقب في مصنفات علوم العربية عن تعريف الحرف، هو تشابه معظم التعاريف مع حصول شبه اجماع على أن الحرف لا معنى له في الحالة الافرادية بل يحصل له معنى إذا ذكر ومتعلقه، وتقاديا للتكرار آثرنا الاكتفاء ببعض التعاريف التي وجدنا بينها شيئاً من التكامل.

عرفه سيبويه بقوله: " فالكلم: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"¹
عرفه ابن السراج بقوله: " فقد بان أن الحرف من الكلم الثلاثة هو الذي لا يجوز أن تخبر عنه ولا يكون خبراً"²

وجاء تعريفه في كشف مشكل النحو بقوله: "أما ما الحرف فهو ما دل على معنى في غيره غير مقترن بزمان...وسمي حرفاً لضعفه، وضعف من حيث كان معناه في غيره فشبه بحرف الشيء الذي هو طرفه لاعتماد الطرف على غيره"³

¹ سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : *الكتاب*، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ط الأولى، د ت، ج 1 ص 12،

² أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي: *الأصول في النحو*، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 3، 1988، ج 1، ص 40

³ علي بن سليمان الحيدرة اليميني: *كشف المشكل في النحو*، تعليق د/هادي عطية مطر، ط 1: 1984/1404، ج 1، ص 209

يقول الرضي: "فالحرف وحده لا معنى له أصلاً، إذ هو كالعالم المنسوب بجنب شيء ليدل على أن في ذلك الشيء فائدة ما، فإذا أفرد عن ذلك الشيء بقي غير دال على معنى أصلاً"¹

وقال المرادي: "وقد حد -الحرف- بحدود كثيرة. ومن أحسنها قول بعضهم: الحرف كلمة تدل على معنى، في غيرها، فقط فإن قيل: ما معنى قولهم الحرف يدل على معنى في غيره فالجواب: معنى ذلك أن دلالة الحرف على معناه الإفرادي متوقفة على ذكر متعلقه"²

لا تحتاج هذه التعاريف إلى إدارة فكر أو فضل تدبر حتى تتكشف لنا عن معانيها فاهم ما يمكن الاهتداء إليه من خلالها هو أن الحرف يفتقر دائماً إلى متعلقه ذلك لأن معناه لا يظهر إلا في غيره، فهو في حاجة دائمة إليه، وهذا ما يجعلها أكثر التصاقاً بالمستوى التركيبي وبالتالي أكثر حاجة إلى السياق، وزيادة على ذلك فليس بإمكانه أن يكون ضمن العملية الاسنادية فلا هو بالمسند إليه حتى يخبر عنه ولا بالمسند حتى يخبر به وبهذا يتميز الحرف عن الاسم والفعل وهذه ملاحظة دقيقة نجدها في تعريف ابن السراج.

¹الرضي الاسترابادي: شرح الرضي على كافة ابن الحاجب، تحقيق: عبد العال سالم ، عالم الكتب -القاهرة- ط1، 2000/1421، ج1، ص24

²الحسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان ، ط1، 1413/ 1992، ص 20، 21

كما أن في تعريف الرضي الاسترابادي نظرة عميقة نلمسها في جعل الحرف كالعلم المنصوب بجنب الشيء الذي يحمل فائدة (معنى) فالعلم/الحرف ههنا له وظيفة الاشارة إلى فائدة/معنى ما ، وليس هو ذات الفائدة/المعنى. وبمعنى آخر فإذا نصبنا علما في مكان للإشارة إلى خطر من نوع ما، فمن السذاجة القول بأن العلم هو الخطر ذاته، وكذلك الحرف والمعنى الذي يدل عليه في سياقه.

ولو تركنا تحديدات القدامى للحرف وانتقلنا إلى الدراسة اللسانية الحديثة، فسنجدها مثبتة مؤكدة لما ألفيناه عند القدامى من أن الحرف كلمة فارغة من المضمون متى أفرد، فهو في حاجة دائمة إلى غيره.

فهذا تمام حسان يقول: " الحرف لا يدل على معنى في غيره، وإنما يدل على علاقة من العلاقات الرابطة لأواصل الجملة فله معنى وظيفي يعرف به ويساق له و ينسب إليه"¹

ويقول فنديريس: " دال النسبة في غالب الأحيان عنصر صوتي يشير إلى النسب النحوية التي تربط الأفكار الموجودة في الجملة بعضها ببعض"²

¹تمام حسان: وحدة البنية و اختلاف الأنظمة ،مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ،

²فنديريس : اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي وزميله ، القاهرة ،مكتبة الأنجلو المصرية، ص105

ويقول في موضع آخر: "من المستحيل ترجمة هذه الكلمات - دوال النسبة - في القاموس فهي عوامل تقويم أو قيم جبرية أو روابط كيميائية ومن ثم لم تكن توجد منعزلة"¹

واللافت للانتباه في هذين التعريفين هو أن الحرف لا يتضمن معنى بل هو عبارة عن آلية ربط مثلها مثل العلاقات الجبرية و الروابط الكيميائية التي لا يمكن أن توجد منفردة، وتكتسب وظيفتها من خلال تموضعها في مدرج الكلام فلا يمكن الحديث عنها إلا بالنظر إلى الأسيقة التي وردت فيها وعلاقتها بمتعلقاتها.

وقد بدا لنا من خلال هذا العرض السريع أن الحرف لا معنى له في حالة الأفراد، وإنما يدل على معنى متى أدرج في سياق معين ثم إننا نوافق تمام حسان فيما ذهب إليه من أن المعاني التي تؤديها الحروف هي معان وظيفية، ويبقى الخلاف في إمكانية تعدد معاني الحرف الواحد أو تخصيص لكل حرف معنى لا يجاوزه، وإن القول بجواز التعدد يسلمنا بالضرورة إلى ظاهرة تناوب الحروف وهي ظاهرة ثار حولها جدل كبير وإذا علمنا تلك العلاقة القوية بين حرف الجر وظاهرة التعدية أدركنا مدى تداخل ظاهرة التناوب مع التضمين النحوي.

¹فندريس: المرجع السابق، ص120.

2- معاني حروف الجر:

إن المتأمل في المكتبة العربية يلاحظ مدى اهتمام علماء العربية بمعاني الحروف فلا نكاد نجد كتابا يخلو من بحثها إن إيجازا أو إسهابا بل ثمة من أفرد لها كتابا خاصة¹ ولا يسعنا المجال هاهنا لتتبع كل معاني حروف الجر، بل سنركز على بعض تلك المعاني التي نجدها مكررة مع معظم حروف الجر إذ إنها المسوغة لوجود ظاهرة التناوب. وسنختار حرف "الباء" نموذجا لذلك.

وستتمحور دراستنا على ثلاثة محاور:

أ/ البحث عن أهم معاني حرف "الباء" أو الحروف التي ينوب عنها

ب/ البحث عن الحروف التي تنوب عن "الباء"

ج/ المعاني المشتركة بين حروف الجر

- أ - بعض معاني حرف الجر - (ب):

أثبت النحاة لهذا الحرف معنى لا يكاد يفارقه و هو معنى الإلصاق²

وقد يأتي بمعنى اللام (للتعليل)³

¹ حروف المعاني للزجاجي ت: 340 ، حروف المعاني للرماني ت: 384 ، الأزهية للهروي ت: 415 ، رصف المباني للمالقي ت: 702 ، الجنى الداني للمرادي ت: 749 ملاحظة: حرف التاء رمز للفظة متوفى .

² ينظر : أحمد بن عبد النور المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص142، - الحسن بن قاسم المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط1: 1992/1413، ص36، - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ص122، جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي بيروت -لبنان 2004/1425، ص384

³ رصف المباني: المرجع السابق، ص144، وينظر كذلك ، المرادي: المرجع السابق، ص39

كقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ^ص فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن

أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿40﴾ "العنكبوت 40"

ويأتي بمعنى "من" للتبعيض¹ كقوله تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرِبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾

"الإنسان 6"

ويأتي بمعنى على (الاستعلاء): كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٍ إِن تَأْمَنَهُ

يَقْنَطِرِ يُوَدِّهِ^{٧٥} إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنٍ إِن تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ^{٧٥} إِلَيْكَ ﴿٧٥﴾﴾ آل عمران 75. ²

ويأتي بمعنى إلى (اللغاية) كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

وَقَالَ يَا بَنَاتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ لِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ

وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴿١٠٠﴾ (يوسف 100) أي إلي³

ويأتي بمعنى عن (المجاوزه) كقوله: قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلُ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ الفرقان: ٥٩

(الفرقان 59)⁴

¹الجنى الداني: ص 43، وينظر كذلك مغني اللبيب : ص 126، و الاتقان في علوم القرآن : ص 385

²الجنى الداني:ص 42، ينظر كذلك، مغني اللبيب: ج 1، ص 126

³الجنى الداني : ص 45، ينظر :مغني اللبيب ج 1، ص 127

⁴الجنى الداني : ص 41 ينظر مغني اللبيب ج 1، ص 125

ويأتي بمعنى في (الظرفية) كقوله تعالى : قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ^ص

بِحَيْثُ هُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ (القمر 34)¹

ويأتي بمعنى مع (المصاحبة) كقوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ

الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ طه 78²

ويجدر بنا في هذا السياق الإشارة إلى أن هذه ليست إلا بعض المعاني التي تنسب لحرف الباء و إن كنا نكتفي بهذا فلأننا قد ركزنا على تلك المعاني التي تمت بسبب إلى ظاهرة التناوب، وسنحاول في المرحلة التالية أن نقف على أهم حروف الجر التي نابت عن حرف "ب" ، و أهم ما لفت انتباهنا ونحن ننقب عن هذه المعاني، كثرة المعلومات المكررة والتشابه الكبير في الاستشهادات.

ب- الحروف التي تنوب عن "الباء":

تنوب عن "الباء" معظم حروف الجر ونذكر منها:

- تأتي على معنى (الباء)³ وذلك في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَىٰ

اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٦٥﴾ "الأعراف 105"

¹ الجنى الداني: ص 40، ينظر: مغني اللبيب ج1، ص 125

² المالقي: المرجع السابق، ص 144، وينظر أيضا المرادي المرجع السابق ص 40

³ جلال الدين السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق : عبد المجيد الهنداوي ، المكتبة التوفيقية -مصر ،مج 2 ، ص 440 ينظر: الجنى الداني ،ص 478، مغني اللبيب ،ص 146، ص 168 ج1، الإتقان في علوم القرآن ص 396

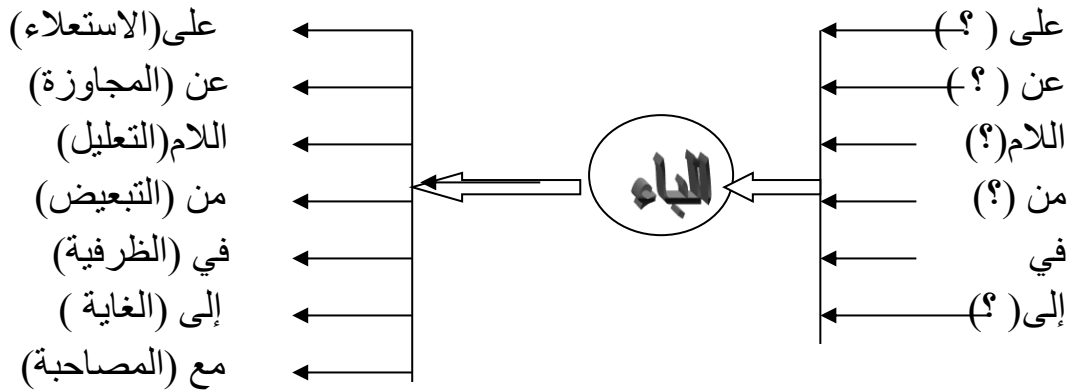
تأتي (عن) بمعنى (الباء)¹ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^٣
"النجم 3"

وتأتي (إلى) بمعنى (الباء)² في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾^{١٤} "البقرة 14"

وتأتي (من) بمعنى (الباء)³ في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَبَّهْمُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَشَعِينَ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^{٤٥} الشورى 45

وتأتي (في) مرادفة للباء⁴ في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَاطِرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ
لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾﴾^{١١} الشورى: ١١

ونوضح كل ما سبق ذكره من معاني "الباء" من خلال هذا الرسم البياني:



¹ محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، 1425هـ/2005م، ج 4، ص 179

² ينظر: محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1: 1420هـ/2000م، ج 1، ص 198

³ ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ج 1، ص 334، الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 255

⁴ جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد الحميد هندواي، المكتبة التوفيقية - مصر - مج 2، ص 445.

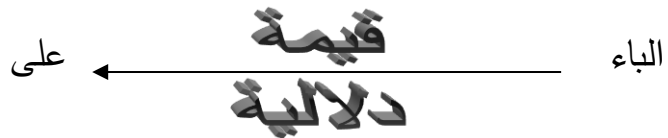
وأهم ما نخلص إليه من خلال هذا الرسم البياني بعض النتائج التي بدت لنا أنها تحتاج إلى شيء من التفصيل ولأن هذا ليس من صلب موضوعنا فسنكتفي بالإشارة إليها ويمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

1/ معظم حروف الجر إن نابت عن "الباء" أغفل النحاة والمفسرون ذكر المعنى الذي بمقتضاه كان هذا التناوب بل يكتفون بالإشارة إلى أن هذا الحرف أو ذلك قد جاء بمعنى "الباء" أو مرادفا له .

2/ إذا ناب حرف "الباء" عن غيره ذكر النحاة في الغالب المعنى الذي بمقتضاه كان هذا التناوب

3/ إن تسليمنا بإمكانية احتواء حرف "الباء" لمعاني حروف الجر التي ذكرناها أنفا سيجرنا إلى إشكالية قد يصعب الخروج منها ومفادها: أنه مادام هذا الحرف ينوب عن غيره قد يجوز الاستغناء عنها، أو ندعي فائدة زائدة في "الباء" متى جاء في معنى حرف آخر.

كأن نقول إن "الباء" جاءت بمعنى "على" حيث أفادت معنى الاستعلاء مع قيمة دلالية مضافة



4/ إذا سلمنا جدلا أن "الباء" قد تؤدي معنى الاستعلاء كما "على" أو الظرفية كما "في" فما الذي يمنعنا من إيرادها في كل السياقات التي ترد فيها "على" أو "في" ؟ وفي هذا

السياق يقول ابن جني: "إنه يكون بمعناه (أي الحرف) في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له"¹

فإننا لنتساءل عن طبيعة هذه الأحوال و تلك المسوغات، بل عن الضوابط التي تجعل التناوب ممكنا في موضع، غير ممكن في موضع آخر وقد لا نحيد عن الصواب لو قلنا إن هذه الضوابط يجب أن تلتبس في السياق، أو في المحددات السياقية التي تعطي الحرف إمكانية تأدية هذا المعنى أو ذاك.

ويجدر بنا في هذا السياق الانتقال إلى المحور الثالث والمتمثل في المعاني المشتركة بين حروف الجر.

ج- المعاني المشتركة بين حروف الجر:

تبين مما تقدم أن الحرف متى ما جاء في غير سياقه المؤلف ذهب النحاة إلى أنه جاء في معنى الحرف المناسب لذلك السياق، ولذا قد نجد المعنى الواحد يشترك فيه أكثر من حرف كما أن الحرف الواحد قد يؤدي معاني عدة.

ومن هذه المعاني المشتركة: الظرفية، التعليل، البدلية، الاستعلاء، المجاوزة...

ويجدر بنا في هذا السياق الإشارة إلى أن الكثير من النحاة و المفسرين يجعلون حروف الجر مرادفة للمعاني التي تؤديها، فيجعلون "في" ترادف القول بالظرفية و "على" يرادف القول بالاستعلاء وهلم جر وهذا ما أثبتناه حينما نتبعنا معاني حرف "الباء".

¹ ابن جني: الخصائص، ج2، ص92

والاشكال الذي نطرحه في هذا المجال هو: هل القول بأن حرف "الباء" جاء بمعنى

"في" يرادف القول بأن "الباء" أدى معنى الظرفية؟ ولنطرح الاشكال بطريقة أخرى: إذا

أدى "الباء" معنى الظرفية هل يعني هذا أنه جاء بمعنى "في" ؟

ولمحاولة الإجابة عن هذا السؤال سنحاول نقل محور البحث من حروف الجر إلى

معانيها، أي سننطلق من المعنى الواحد ونحصي الحروف التي تؤديه، ولنأخذ معنى

الظرفية نموذجاً .

معنى الظرفية في حروف الجر:

إن أهم حرف يؤدي معنى الظرفية هو "في" وكثيراً ما جعل النحاة هذا الحرف مرادفاً

لذلك المعنى، ومتى ما أدى معنى الظرفية بحرف جر آخر إلا وقالوا بأنه جاء بمعنى

"في" أو ناب عنه.

وفيما يلي نسرد أهم الحروف التي تؤدي معنى الظرفية:

معنى الظرفية في (الباء):

وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

(البقرة 274)¹

¹ أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان، م6 ، ج3 ، ص48

ونحو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢٣)

(آل عمران 123)¹

الظرفية في (على):

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ...﴾ (١٥) (القصص 15)

ونحو قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...﴾ (١٢) (البقرة 102)²

الظرفية بـ(اللام) :

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن

كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧) (الأنبياء 47)³

الظرفية بـ(من):

نحو قوله تعالى: "قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا

مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ...﴾ (٤٠) (فاطر 40)⁴

¹ ينظر: الجني الداني، ص 40

² ينظر: مغني اللبيب، ج 1، ص 163

³ ينظر: المرجع نفسه ج 1، ص 230

⁴ ينظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 334

الظرفية ب(إلى):

قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ " (النساء 87)¹

وإذا سلمنا أن هذه الحروف قد أدت معنى الظرفية في هذه السياقات القرآنية، فقد لا نسلم بأنها جاءت نائبة عن "في" مثلما ذهب إلى ذلك طائفة من النحاة، وهذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكالية التالية: هل معنى الظرفية في كل حرف من هذه الأحرف متماثل أم مختلف؟ فإن قلنا بالتماثل فما الدافع إلى العدول عن حرف إلى غيره وأما إن كان هذا المعنى مختلفا باختلاف الأحرف المؤدية له، فما معنى الظرفية في كل حرف من هذه الحروف؟

قد يشق علينا الإجابة عن هذه الإشكاليات، ولكن لا مناص من الإشارة إليها ومحاولة تلمس الطريق المفضي إلى حلها، ولعل أول معلم نسترشد به في هذه الطريق قول ابن السراج في كتابه **الأصول في النحو** حيث يقول: " واعلم أن العرب تتسع فيها (حروف الخفض) فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني فمن ذلك: (الباء) تقول : فلان بمكة ، وفي مكة و إنما جازا معا لأنك إذا قلت : فلان بموضع كذا وكذا فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع و إذا قلت : في موضع كذا فقد خبرت ب(في) عن احتوائه إياه و إحاطته فإذا **تقارب الحرفان** فإن هذا التقارب يصلح للمعاقبة

¹ لينظر: الجنى الداني، ص387، ص388

و إذا تباين معناهما لم يجز ألا ترى بأن رجلا لو قال : مررت في زيد أو كتبت إلى

القلم لم يكن هذا يلتبس به فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض "1

يمكن الخلوص من هذا القول إلى أن حروف الخفض قد تتقارب معانيها، وهذا ما

يكسبها قدرة التعاقب على السياق الواحد، وهذا دون أن يفقد الحرف معناه الأصلي،

ف"الباء" في "بمكة" خُبر بها عن الاختلاط والالصاق بالموضع وأما "في مكة" فقد خبر

ب"في" عن الاحتواء والاحاطة، إذا فأداء معنى الظرفية بحرف الجر (ب) مختلف عن

أدائه بحرف الجر (في).

وبناء على هذا ف"الباء" في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ (البقرة 274) لم تأت بمعنى "في" ، بل أدى هذا الحرف معنى

الظرفية مع اختلاط واقتران فعل الإنفاق بوقت الليل و النهار وأطرف تعليق وجدته

في هذه الباب تعليق السامرائي على هذه الآية حيث يقول: "فالباء للملاصقة

والاقتران، وفي للاحتواء، قال تعالى: "الذين ينفقون أموالهم بالليل و النهار) فجاء

بالباء لأن الانفاق مقترن بوقت الليل والنهار، بخلاف قوله تعالى: "يولج الليل في

النهار ويولج النهار في الليل" (الحج:61) فإنه جاء بفي لإرادة التضمن والاحتواء

والدخول، فقد جعل النهار ظرفا لليل ،والليل ظرفا للنهار كأنه يحتويه... ونقول (هو

¹ ابن السراج:الأصول في النحو، ج 1، ص415

ينفق المال بالليل) و(هو ينفق المال في الليالي الحمراء) فإن معنى الأولى أن وقت الانفاق هو الليل، أي يقترن بهذا الوقت وبصاحبه، و أما الثانية فعلى معنى أنه يذهب في الفسق ، فجعل الليالي وعاء يرمي فيه المال"¹
وعليه فإن معنى الظرفية المؤدى بـ (الباء) غير معنى الظرفية الذي يفيد حرف الجر (في).

وأما على فقد جاءت بمعنى "في" -حسب النحاة- وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾
... ﴿١٥﴾ (القصص 15)

ويعلق السامرائي على هذه الآية بقوله: "والحق أنها ليست بمعنى (في) تماما، فإن ثمة فرقا بين قولنا (جاءنا على غفلة)، (وجاءنا في غفلة) ألا ترى أنا نقول (هاجمه في وقت الغفلة)، ولا نقول (هاجمه على وقت الغفلة)... الذي يبدو أن قولنا (هاجمه في غفلة) معناه أنه هاجمه وهو داخل في الغفلة وأما (هاجمه على غفلة) فليس معناه أنه غارق في الغفلة وإنما كان عليها ولم تحتوه"²

يمكن الاسترشاد بهذا القول للاهتمام إلى ذلك المعنى اللطيف الذي أفادته (على) في هذه الآية الكريمة وقد تعجز (في) عن تأديته ، وهو أن أهل المدينة التي دخلها

¹صالح السامرائي: معاني النحو، ج3، ص81
²صالح السامرائي: المرجع السابق، ج3 ص82

موسى - عليه السلام - لم يكونوا منغمسين في الغفلة ولا الغفلة احتوتهم، بل إن موسى كان يتربص ويتحين لحظة الغفلة فينتهزها فرصة ليدخل المدينة وهو آمن، فليست غفلة القوم في الآية السالفة كغفلة الكفار في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ

إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ * مريم 39

أو قوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فِإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ

كَفَرُوا وَيَتَوَلَّوْنَآ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ * (الأنبياء 97)

فإن الغفلة في هاتين الآيتين كأنها قد احتوت الكفار فهم منغمسون فيها لا تكاد الفطنة تجد إليهم سبيلا.

وأما (من) في قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا

خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) فقد تكون للتبعيض¹ أي ماذا خلقوا من المخلوقات التي ترونها في

الأرض، أو أنها قد تكون لبيان الجنس² كقوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ

جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ

طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٤٩﴾ * (آل عمران 49)

ابنظر: الجنى الداني: ص 314
مغني اللبيب ج 1 ص 334

ولو عدنا إلى قوله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا)

فإنه قد ذهب بعض النحاة إلى أن حرف الجر (لـ) قد جاء بمعنى (في) فالموازين توضع في يوم القيامة ولكن لغرض وهو المحاسبة، فالعلة من وضع الموازين يوم القيامة هي محاسبة الناس ووزن أفعالهم، فمعنى التعليل يمكن تلمسه في تلك الآية وإن كان خفياً، وكذلك بالنسبة لـ"إلى" في قوله تعالى: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) فإن الناس سيجمعون في يوم القيامة فحشرهم منته إلى يوم القيامة وهذا المعنى الذي نجده في "إلى" ولا يؤديه "في" .

وبناء على هذا يمكننا القول بأن بعض حروف الجر قد تؤدي معنى الظرفية ولكن بدلالات مختلفة ولذلك فهي ليست بمعنى "في" بل أدت معنى الظرفية كما تؤديه "في" مع خصوصية دلالية فارقة، فـ"الباء" قد تؤدي معنى الظرفية والمخالطة والإصاق، كما تؤديه "على، ومن، وإلى، واللام وفي" مع فائدة أو معنى لطيف يجليه السياق.

و مجمل القول في هذه المعاني المشتركة هي أنها تجعل الحروف متقاربة دلالياً حتى قد نتوهم أن هذا الحرف قد ناب عن غيره، أو قد جاء في غير سياقه فنتمس في أحرف الجر ما كان أنسب لذلك السياق فيجعل أصلاً والحرف المذكور فرعاً عنه، فنقول: إن "الباء" أو "على" قد جاءت بمعنى "في" فنسلب العبارة بيانها، ونحجم العقل عن قطف

ثمارها. "فعلی الناظر في معاني الحروف أن يتكاسى في بيان مدلولاتها، وأن يعطي الحروف حقها عن ميزة وعلى بصيرة"¹

خلاصة

وخلاصة ما بدا لي في ظاهرة التناوب هو أنها مبنية على مقدمات أنزلت منزلة المسلمات، إذ يذهب إلى الحديث عن قدرة الحرف على تضمين معنى سواه في الوقت الذي يضعف الحرف فيه عن حمل معناه ، ثم إن هذا الكلام في حد ذاته يستلزم أن يكون لكل حرف معنى خاص وهو أمر يحتاج إلى تثبت.

ثم إن الأمر الذي استوقفنا ونحن نستكنه خفيا هذه الظاهرة هي الخدمة العظيمة التي قدمتها هذه الظاهرة إلى بعض النحاة و المفسرين ،فمتى ما وجدوا الحرف في غير سياقه المؤلف إلا ووجدوا لهم في القول بالتناوب مسلكا سهلا، ومخرجا يجنبهم مشقة البحث عن سر خروج هذا التركيب عن المؤلف ومن ذلك كأن يقال مثلا إن "على" جاءت بمعنى "في"² في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا...﴾ (القصص 15)

وجاءت "في" بمعنى "على"³ في قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنَّا لَهُ وَقَبَلْنَا بَأْسَهُ وَكَمَّمُ كَشْرُومًا لِّمَنَّا لِكَمِيمٍ﴾
الَّذِي عَلَّمَكَ السَّحْرَ فَلَا تُقِطِعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا تُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ
وَتَعَامَنَّ أَتِينًا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ طه: 71

¹محمد نديم فاضل: التضمين النحوي في القرآن الكريم، دار الزمان للنشر والتوزيع، ط6، 1426هـ/2005م، مج1، ص23

²ينظر: الاتقان في علوم القرآن، ص396، ومغني اللبيب، ص163

³تتظر: رصف المباني ص388، والحنى الداني ص251، ومغني اللبيب في كتاب الأعراب

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبِلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا وَقَطَعَنَّ

أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيُّهَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ ﴿٧١﴾

(طه 71) وكل ذلك بدون أي تعليل، وكأن هذا من الأمور المسلم بها و التي لا تحتاج إلى بيان أو دليل.

ويعضد هذه الملاحظة قول د/ محمد نديم فاضل: "... ترخص في تناوب الحروف من ترخص من المقلدين ليخرج من وعورة المسلك، ويفر من صعوبة البحث، إلى قرب المأخذ وسهولة التناول وأما الحذاق المتقنون فالى التضمين في الفعل أميل"¹

المبحث الثالث : التضمين وظاهرتا التعديّة و اللزوم

التضمين -مثلما سبق وأكدنا ذلك- هو إشراب فعل معنى فعل آخر مع إعطائه حكمه في التعديّة واللزوم، فقد يكون الفعل لازما فيتعدى بالتضمين أو يكون متعديا لمفعول واحد فيتجاوز به إلى غيره، او قد يكون متعديا فيصبح لازما، أو متعديا بحرف فيعدل به عن حرفه إلى حرف آخر وهذه الحالة الأخيرة هي التي جعلت التضمين يتداخل مع ظاهرة التناوب، وذلك لأن: "ظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى

¹محمد نديم فاضل: المرجع السابق مج1/ص114

مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه.¹

ويحتاج البحث في علاقة التضمين بظاهرتي التعدية واللزوم إلى أن نقدم بين يديه بتعريف موجز للفعل اللازم والفعل المتعدي.

1- تعريف الفعل اللازم:

يعرفه علي بن سليمان الحيدرة بقوله: "أما اللازم فهو كل فعل لا دليل فيه على مفعول مثل: قام زيد... وسمي لازما: للزومه على فاعله لأن الفعل إنما جاء في الأصل لشيئين: وهما رفع الفاعل، والدلالة عليه، ثم قويت بعد ذلك أفعال فتعدت إلى مفعول"² وأما صاحب الكليات فيعرفه بقوله: "كل فعل لا يتوقف فهمه على فهم أمر غير الفاعل ك(خرج) و(قعد) ... وكل فعل نسبته إلى جميع الأعضاء وكل ما كان من الأفعال خلقة وطبيعة لا تعلق له بغير من صدر عنه نحو (صام) و (جلس)"³

يعتمد هذان التعريفان على معيارين في توصيف ظاهرة اللزوم: المعيار الدلالي و المعيار التركيبي؛ فأما من الناحية الدلالية فالفعل اللازم هو الفعل الذي يدل دون حاجة إلى مفعول به ولا دليل فيه عليه، فهو يؤدي الغرض مع فاعله دونما حاجة إلى غيره وهي ما كان من الأفعال خلقة ولا تعلق له بغير ما صدر عنه فالفعل ضحك أو بكى أو طال

¹شمس الدين محمد بن أبو بكر ابن قيم الجوربة: بدائع الفوائد، راجعه محمد عبد القادر الفاضلي وأحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا-بيروت، 2003/1424، ج2 ص26

²علي بن سليمان الحيدرة: كشف المشكل في النحو، مج1، ص385

³الكليات: ص808

هي أفعال متعلقة بفاعلها ولا حاجة لها لغير كما أنها أفعال طبيعية خلقية أما الفعل صام وإن كان غير خلقي فهو لا يتعلق إلا بفاعله.

وأما المعيار التركيبي فنجد في رفع الفعل للفاعل و العمل فيه.

ثم إن الفعل اللازم وإن كان لا يتعدى إلى مفعول به غير أنه قد يتعدى إلى غيره.

ما يتعدى إليه اللازم:

يقول سيبويه: "و اعلم أن الفعل الذي لا يتعدى الفاعل يتعدى إلى اسم الحدثان الذي أخذ منه ، لأنه إنما يذكر ليبدل على الحدث ...و يتعدى إلى الزمان ...ففيه بيان ما مضى وما لم يمض منه، كما أن فيه استدلالا على وقوع الحدث...ويتعدى إلى ما اشتق من لفظه اسما للمكان و إلى المكان لأنه إذا قال ذهب أو قعد فقد علم أن للحدث مكانا وإن لم يذكره...ويتعدى إلى ما كان وقتا في الأمكنة كما يتعدى إلى ما كان وقتا في الأزمنة لأنه وقت يقع في المكان..."¹

قال السيرافي : " فأما الأشياء التي تشترك في تعدي الأفعال إليها وعملها فيها ، فهي

المصادر و ظروف الزمان و المكان و الحال و المفعول معه و المفعول له"²

وواصل قائلا: " والنحويون يذكرون تعدي الأفعال إلى أربعة من الستة واشتراكها فيها

وهي : المصادر و ظروف المكان ، و ظروف الزمان ، والحال. و لم يذكروا المفعول

معه ولا المفعول له مع هذه الأربعة ، وذلك أن كل فعل لا بد له من مصدر، وظرف

¹ أبو بشر عمرو بن عثمان : كتاب سيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل - بيروت ، ط 1 ، ج 1 ، ص ، ص 35 ، 36 ، 37 ،

² أبو سعيد السيرافي : شرح كتاب سيبويه ، تحقيق محمد حسن محمد يوسف ، رسالة دكتوراة ، جامعة الأزهر ، 1978م ، ص 229

زمان وظرف مكان وحال. وقد يخلو من المفعول له و المفعول معه، وذلك أن المفعول له هو الذي أوقع الفعل من أجله ... و المفعول معه هو الذي يشارك الفاعل ويلا بسه.¹

إن كلام سيبويه كلام دقيق و عميق يكاد يلامس ما يقوله اللسانيون في العصر الحديث حول السمات الدلالية ، فهو يرى ان القعل يتجاوز فاعله إلى عناصر هي متضمنة فيه، فالفعل يدل على الحدث أو اسم الحدثان ، كما يدل على الزمان ثم تقترن به دلالة المكان إذ إن كل حدث وزمان يجب أن يكونا ضمن إطار مكاني ، فدلالة الفعل على الحدث و الزمان دلالة تضمين أما دلالته على المكان فدلالة التزام ودلالة التضمن أقوى.

والذي يهمننا في مقامنا هذا هو التعدي إلى المفعول به فهو الفارق بين المتعدي واللازم وقد جاء في المفصل : " المتعدي و غير المتعدي سيان في نصب ما عدا المفعول به من المفاعيل الأربعة وما ينصب بالفعل من الملحقات بهن..²

ويفسر شارح "المفصل" المقصود ب"الملحقات بهن" حيث يقول : "...يريد الملحق بهذه الأشياء الأربعة من المفعول معه و المفعول له"³

وقبل الانتقال إلى الفعل المتعدي نرى لزاما الإشارة إلى الآليات التي تجعل اللازم متعديا

¹ أبو سعيد السيرفي : لمرجع السابق ، ص 230
² يعيش بن علي بن يعيش النحوي : شرح المفصل ، تحقيق : أحمد السيد سيد أحمد ، مراجعة : إسماعيل عبد الجواد عبد الغنى ، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر ، مج 3 ، ج 7 ، ص 319
³ ابن يعيش : المرجع السابق ، مج 3 ، ج 7 ، ص 320

الآليات التي تجعل اللازم متعديا:

لقد ذكر النحاة مجموعة من الإجراءات التي تقوي الفعل فتنقله من اللزوم إلى التعدي ومنها : همزة أفعل، ألف المفاعلة، تضعيف العين، إسقاط الجار توسعا، والتضمين.¹

ولقد اختلف في كل من الهمزة و الباء و التضعيف في دلالتها على التعدية هل تحمل معنى واحدا أم معاني مختلفة و نقل السيوطي ذلك في كتابه الموسوم **بهمع الهوامع** حيث يقول: "و(تتعاقب الهمزة و التضعيف و الباء) أي يقع كل منها موقع الآخر من أجل ذلك (ادعى الجمهور أن معناهما) أي الهمزة و التضعيف ، أو الهمزة و الباء، في التعدية ... وادعى الزمخشري ومن وافقه أن بين التعديتين فرقا و أن التعدية بالهمزة لا تدل على التكرار، و بالتضعيف تدل عليه... وادعى المبرد و السهيلي الفرق بين الهمزة و الباء و أنك إذا قلت: ذهب يزيد كنت مصاحبا له في الذهاب..."²

ولقد جعل ابن هشام الأمور التي يتعدى بها الفعل اللازم سبعة وفي كل عنصر تفاصيل قد تنأى بنا عن المطلوب

وملخص ذلك هو أن الفعل اللازم قد تدخل عليه بعض التحولات إما بزيادة حروف أو تغير في صيغته فتجعله متعديا واختلف النحاة حول دلالة هذه الزيادة والمعاني التي تضيفها للأفعال.

¹ ينظر مغني اللبيب: ج2، ص182
² جلال الدين السيوطي: همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، مج 3، الكتاب 4، ص 12

الفرق بين التضمين و غيره من المعديات:

يمتاز التضمين عن غيره من آليات التعدية بالخصائص الآتية:

1- إن الفعل الذي يتعدى بألية التضمين لا يلحقه شيء من التغيير في بنيته ولا في صيغته وإنما يبقى الفعل على هيئته وتتسع دلالاته للتعبير على أكثر من معنى.

2- إن التضمين يمتاز عن غيره من المعديات بأنه قد ينقل الفعل إلى أكثر من درجة كأن يجعل اللازم متعديا لمفعولين وفي ذلك يقول ابن هشام: "ويختص التضمين عن غيره من المعديات بأنه ينقل الفعل إلى أكثر من درجة ، ولذلك عدي (ألوت) بقصر الهمزة إلى مفعولين بعدما كان قاصرا ، وذلك في قولهم (لا آلوك نصحا، ولا آلوك جهدا) لما ضمن معنى أمنعك
ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ آل عمران 118 ..¹

3- إن التضمين قد ينقل الفعل من اللزوم إلى التعدية كما تفعله غيره من المعديات غير أنه يختلف عنها من حيث إن الفعل قد يجمع بين معنيين والدلالة عليهما أما المعديات الأخرى فمعانيها محدودة معلومة نحو : التعدية ، والتكرار والطلب.

2- تعريف الفعل المتعدي:

الفعل المتعدي هو كل فعل "فيه دليل على مفعول، وربما دل على مفعولين، وثلاثة، مثل ضَرَبَ، وأعطى، وأعلم، ألا ترى أن (ضرب) يدل على ضارب ومضروب و(أعطى) يدل على معطٍ، ومعطى، ومعطى إياه، و(أعلم) يدل على معلم ومعلم

¹ لينظر: مغني اللبيب ، ج 2، ص 182

به ومعلم من أجله... وأما لم سمي متعديا؟ فلتعديه إلى المفعول وعمله به، ودلالته عليه ولم يجئ في الأصل له¹

فالفعل يتضمن الدليل على مفعوله أو مفعولاته ، فدلالة اللفظ هي التي تحدد تصرفه في التعدية ففعل الضرب مثلا يستلزم مضروبا كما أن الاعطاء يستلزم المعطى والمعطى له وبناء على هذا قسم النحاة الفعل المتعدي بحسب المفعولات التي يتعدى إليها وهذا ما نجده في أبواب الفاعل عند سيبويه حيث جعله أربعة أبواب إن تجاوزنا الباب الذي يشير فيه إلى الفعل اللازم وهي كالاتي:

1-باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول.²

2-باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين، فإن شئت اقتصرت على المفعول

الأول وإن شئت تعدى إلى الثاني كما تعدى إلى الأول.³

3-باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد

المفعولين دون الآخر.⁴

4-باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى ثلاثة مفعولين ولا يجوز أن تقتصر على مفعول

منهم واحد دون الثلاثة ، لأن المفعول ههنا كالفاعل في الباب الأول الذي قبله

في المعنى.⁵

¹كشف المشكل في النحو: مج 1 ، ص402، ص406

² الكتاب ، ج 1 ، ص 34

³ الكتاب ، ج 1 ، ص 37

⁴ الكتاب ، ج 1 ، ص 39

⁵ المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 41

ونخلص من هذه الأبواب إلى أن أقصى ما يتعدى إليه الفعل ثلاثة مفعولات، ولقد اختلف النحاة بعده في وضع أقسام المتعدي فمنهم من جعلها على ثلاثة أنواع ؛ أي المتعدي لمفعول ، و المتعدي لمفعولين والمتعدي لثلاثة مفعولات ثم فرعها فجعلها على عشرة أقسام كابن عصفور¹.

ومنهم من ذهب إلى أقل ما يمكن أن تذهب إليه القسمة كابن جني الذي جعل المتعدي قسمين: متعد بنفسه ، ومتعد بحرف الجر² وتبعه في ذلك الشلوبين غير أنه سمي

المتعدي بنفسه **المتعدي المطلق** وسمى المتعدي بحرف الجر **المتعدي المقيد**³

ولعل سبب هذا الاختلاف في تقسيم المتعدي يعود إلى الزاوية التي ينظر من خلالها فمن كان ينظر إلى مبلغ أثر الفعل ركز على عدد المفعولات التي يتجاوز إليها أثر الفعل ، و من كان ينظر من زاوية التعدية أي من زاوية المعنى الوظيفي أي ركز على ظاهرة التعدية جعلها على نوعين تعدية ذاتية وتعدية بالأداة ثم إن المصطلح الذي استعمله الشلوبين يبدو لي أنه أكثر دقة و الأفضل في توصيف الظاهرة.

فالتعدية قد تكون مطلقة تفيد إيصال أثر الفعل إلى المفعول كضربت الظالم أما التعدية بحرف الجر فهو تعد بكيفية معينة ويحدد الحرف هذه الكيفية. " والحروف التي يتعدى بها سبعة : الباء وهي أصل التعدية في جميع الأفعال اللازمة ، واللام، وفي، وعن

، وإلى ، وعلى"⁴

¹ ينظر : علي محمد فاخر : شرح المقرب لابن عصفور، ط1 ، 1414هـ / 1994م ، ج2 ، من الصفحة 31

² ابن جني : اللمع ، ص،ص،ص، 51-52-53

³ الشلوبين : التوطئة ، 193

⁴ أبو البقاء الكفوي: لكليات: ص812

وقبل الشروع في تبيان تصرف التضمين في ظاهرتي التعدي و اللزوم نرى لزاما أن نعرض على المعايير التي اعتمدها النحاة للتفريق بين الفعل المتعدي و الفعل اللازم.

معايير التمييز بين المتعدي و اللازم:

لقد استعان النحاة ببعض المعايير للتفريق و التمييز بين المتعدي و اللازم ومنها:

أ- أبنية الأفعال:

لاحظ النحاة أن بعض أبنية الأفعال لا تأتي إلا لازمة وبعضها خاص بالمتعدية ومنها مشترك بين أفعال التعدي و اللزوم ولقد أشار ابن عصفور إلى كل ذلك بقوله: "...فعل يفعل: يجيئان متعديين وغير متعديين. فالمتعدي منهما: ضرب وعلم وغير المتعدي: قعد وأشر. وفعل: لا يتعدى البتة، نحو: ظرف وشرف. فعلل: ولا يكون إلا متعديا، نحو: جلببه و شمله. إلا أن يكون رباعيا، فإنه يكون متعديا وغير متعد. فالمتعدي نحو: دحرجته وصعرتة. وغير المتعدي نحو: قرقر. فيعل وفوعل وفعول وفعل: تكون متعدية وغير متعدية. فالمتعدي منها: بيطر الدابة، وصومع الثريد، ودهور المتاع، وقلسى الرجل. وغير المتعدي: بيقر وحوقل، وهرول ..."¹

ب - المعيار الدلالي :

اهتم النحاة بالحقل الدلالي في التمييز بين المتعدي و اللازم وحاولوا جعلها أصنافا وأنواعا ومن أهم النصوص التي ألفينها معتمدة على هذا المعيار نصوص ابن السراج

¹ علي بن مؤمن محمد الاشبيلي ابن عصفور : الممتع الكبير في التصريف ، -لبنان ، ط 1 ، 1996م، ص 124

وخاصة في كتابه الموسوم **بالأصول في النحو** ومن ذلك قوله : " ...فسمي الفعل الملاقي متعديا وما لا يلاقي غير متعد. فأما الفعل الذي هو غير متعد فهو الذي لا يلاقي مصدره مفعولا نحو: قام ، وأحمر، وطال. إذا أردت به ضد قصر خاصة...و الأفعال التي لا تتعدى هي ما كان منها خلقة أو حركة للجسم في ذاته وهيئة له، أو فعلا من **أفعال النفس** غير متشبه بشيء خارج عنها ... وأما الفعل الذي يتعدى، فكل حركة للجسم كانت ملاقية لغيرها وما أشبه ذلك من أفعال النفس وأفعال الحواس من الخمس كلها متعدية ملاقية.¹

لقد تجاوز ابن السراج في نصه هذا ذلك المستوى التركيبي الذي يقصر نظره على المعاني النحوية كالفاعلية و المفعولية وفتح بابا واسعا على المستوى الدلالي فجعل الأفعال قسمين : غير ملاق لغيره وهو ما دل على الخلقة وحركة الجسم وأفعال النفس وقسم الملاق لغيره من حركة للجسم أو فعل للنفس ثم جعل الأفعال الصادرة عن الحواس من هذا القسم.

وشيء من هذا الاهتمام الدلالي الذي وجدناه عند ابن السراج نجده عند غيره من النحاة ولكن باصطلاحات مختلفة ومن ذلك تقسيم ابن السراج للأفعال المتعدية إلى علاجية وغير علاجية وأحيانا يستعمل مصطلح الأفعال المؤثرة²

¹ ابن السراج : أصول النحو ، ج 1، ص 169، ص 170
² ينظر شرح المفصل لابن يعيش ، ج 7، ص 62

إذا يمكن القول بأن ظاهرة التعدية و اللزوم ليست بتلك الظاهرة الجامدة المتكلسة التي تسجن الأفعال في مصفوفات مغلقة بل هي ظاهرة مرنة تتسم بالسعة باستحضار المستوى الدلالي الذي يرتبط أول ما يرتبط بالسياق، فمثلا الفعل "أتى" قد يكون لازما من حيث عدم تعلقه بغير فاعله نحو " أتى الأستاذ" وقد يصبح متعديا مطلقا متعلقا بغير فاعله نحو: أتاكم الخير، وقد يكون متعديا محدودا متعلقا بغير فاعله نحو: أتيت إليكم.

و زيادة عن ذلك فهناك آليات تمكن الفعل من الانتقال من التعدية إلى اللزوم والعكس فأسباب جعل تعدي اللازم أصالة ثمانية: الهمزة، التضعيف، زيادة الألف و السين والتاء، زيادة ألف المفاعلة وزيادة حرف الجر وحذفه توسعا، والمغالبة وأخيرا التضمين. أما أسباب لزوم المتعدي أصالة خمسة: تحويله إلى فَعْل، ضعف العامل لتأخيره، صيرورته مطاوعا، و الضرورة وأخيرا التضمين

ولعل التضمين هو الآلية الوحيدة التي تمكن الفعل من التنقل بين اللزوم و التعدية وتكسب الفعل نوعا من المرونة والسعة التي تتناسب طبيعة اللغة ولهذه الآلية مزايا سنذكرها لاحقا.

واللافت للانتباه في الأسطر السابقة ورود التضمين ضمن الأسباب التي تجعل اللازم متعديا، كما وجدناه ينزل بالفعل من التعدية إلى اللزوم وسنحاول تتبع ذلك في المباحث الآتية.

3- تصرف التضمين في التعدي و اللزوم الأفعال:

سنحاول تتبع أثر التضمين في تصريف الأفعال بين التعدية واللزوم ولن ندعي في هذا المجال حصر كل الحالات التي يتدخل التضمين فيها كي ينقل الفعل من اللزوم إلى التعدية أو يترد به فيجعله قاصرا بعد أن كان متعديا. ولكن حسبنا في ذلك ان نبين تصرفه في ظاهرتي التعدي و اللزوم وسنقتصر في ذلك على الآية القرآنية خدمة لموضوع بحثنا.

أ - تضمين الفعل اللازم معنى المتعدي:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَن قَلْبِهِ إِبْرَاهِيمَ إِالَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ

فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ .. (البقرة 130)

جاء في الكشاف: "سفه نفسه" امتنها أو استخف بها"¹

روح المعاني: " وتعدي _سفه_ إلى مفعول لتضمنه معنى ما يتعدى إليه ، أي جهل نفسه لخفة عقله وعدم تفكره وهو قول الزجاج ، أو أهلكها وهو قول أبي عبيدة وقيل إن النصب بنزع الخافض أي في نفسه فلا ينافي اللزوم وهو قول لبعض البصريين"²
جاء الفعل سفه في هذه الآية الكريمة متعديا وذلك لتضمنه معنى فعل متعد، وأهم الأفعال التي أشار المفسرون إليها هي : جهل، أهلك، امتهن، واستخف،

¹الزمخشري : الكشاف، ج1، ص145
²الألوسي: روح المعاني ج1، ص387،

ب -تضمين الفعل المتعدي بنفسه معنى المتعدي بحرف الجر:

ومن الشواهد على ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^٢،

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ (الكهف 28)

فقد جاء في الكشاف تعليقا عن هذه الآية: " وإنما عدي ب(عن) ،لتضمين (عدا) معنى

(نبا) و (علا) فيقول : نبت عنه عينه إذا اقتحمته و لم تعلق به فإن قلت : أي غرض

في هذا التضمين؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عينك أو لا تعل عينك عنهم؟ قلت الغرض

فيه إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى "1

وقال ابن عطية الأندلسي: " وقوله : (لا تعد عينك عنهم) أي لا تتجاوز عنهما إلى

أبناء الدنيا و الملابس من الكفار"2

وجاء في تفسير الألوسي : (لا تعد عينك عنهم) أي لا تصرف عينك النظر عنهما

إلى أبناء الدنيا ، و المراد النهي عن احتقارهم و صرف النظر عنهم لثلاثة حالهم إلى

غيرهم فعدا بمعنى صرف المتعدي إلى مفعول بنفسه و إلى آخر ب(عن) ، قال في

"القاموس" يقال: عداه عن الأمر عدوا وعدوانا صرفه "3

1الزمخشري: الكشاف ،ج2، ص526

2القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1: 2001/1422، ج3، ص512

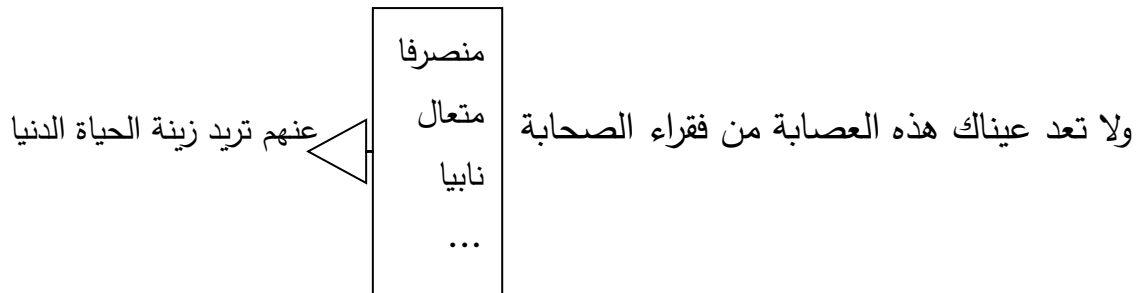
3أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، دار إحياء التراث العربيبيروت_لبنان، ج15 ص263

ومن خلال هذا الاستعراض الموجز لتحليل بعض المفسرين للآية الكريمة نخلص إلى أن الفعل "عدا" إنما يتعدى بنفسه ولا يحتاج إلى حرف جر يوصله إلى مفعوله، وأهم الأفعال التي يمكن أن يتضمنها الفعل "عدا" في سياق هذه الآية الكريمة هي: نبا وعلا وتجاوز وصرف. والقريظة النحوية التي استند المفسرون عليها هي تعدي الفعل بـ"عن"، وهذا دون إغفال التقارب الدلالي الموجود بين الفعل المذكور و الفعل المتضمن.

ويجدر بنا في هذا المجال التذكير بالسياق العام لهذه الآية الكريمة حيث تستهل بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن يصبر نفسه مع الذين يتجهون إلى الله من كرام الصحابة و أن يغفل و يهمل الذين يغفلون عن ذكر الله من أكابر قريش و يعرض عن طلبهم المتمثل في طرد فقراء المؤمنين من أمثال (بلال و صهيب، وعمار، وخباب وابن مسعود)¹

وهو يطمع في إيمان رؤوس قريش

و لو أعدنا قراءة هذه الآية الكريمة على ضوء هذه المعطيات السياقية، لوجدنا الفعل "تعدو" مستوعبا لمجمل الأفعال التي ذكرها المفسرون ونبين ذلك من خلال هذا الرسم البياني:



¹ انظر : البحر المحيط: ج7، ص166

2/ وقوله تعالى (النور: 63) ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور: 63

"فليحذر الذين يخالفون عن أمره (أي يعرضون عن أمره و ينصرفون عنه بغير إذن) أن تصيبهم فتنة "1

قال النسفي: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) النور: 63 ، أي الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون. يقال : خالفه إلى الأمر إذ ذهب إليه دونه، وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه"2

وقال البقاعي: وقوله: "فليحذر(أي يوقع الحذر) الذين يخافون (أي يوقعون مخالفته بالذهاب مجاوزين معرضين (عن أمره) أي أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "3
وجاء في الكشاف: " يقال: خالفه إلى الأمر، إذا ذهب إليه دونه.

ومنه قوله تعالى: (و ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) هود: 88 ، و خالفه عن الأمر : إذا صد عنه دونه. ومعنى (الذين يخالفون عن أمره) الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون فحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه. الضمير وأمره لله أو للرسول - صلى الله عليه وسلم."4

يبدو من خلال هذا الاستعراض السريع ان الفعل "خالف" في سياق هذه الآية يمكنه تضمن معاني الأفعال الآتية: **أعرض، انصرف، صد، جاوز.** و القرينة اللفظية في كل ذلك اقتران الفعل بـ"عن" أما القرينة المعنوية هي ورود الفعل في سياق الأفعال اللازمة.

¹ علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الخازن: **لباب التأويل في معاني التنزيل**، دار الفكر بيروت - لبنان

1399هـ/1997م، ج5، ص92

² أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: **تفسير النسفي**، دار النفائس 2005 ، تحقيق مروان محمد الشعار، ج3، ص229

³ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: **نظم الدرر في تناسب الآيات و السور**، دار الكتب العلمية، بيروت ،تحقيق عبد الرزاق

غالب المهدي، ط 1415هـ/1995م ، ج5، ص290

⁴الزمخشري: الكشاف

ويجدر بنا في هذا الصدد التذكير بأن الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة ترسم الحدود الشرعية لآداب الاستئذان كما تتضمن هذه الآية الكريمة الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها وهي آداب لا يستقيم أمر الجماعة إلا بالالتزام بها و المداومة عليها حتى تصبح تقليدا متبعا وقانونا نافذا فانصراف المنافقين عن مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم - بدون استئذان مخالف لأمر الله و رسوله، وفي ذلك اعراض و انصراف وصد ومجاوزة لأمر الشارع

نكتفي بهذين النموذجين في هذا المبحث فقد حقق الغرض في تبيان تضمن الفعل المتعدي لمعنى الفعل اللازم، وإن في هذا المبحث قد استعن ببعض السياقات القرآنية كالمناسبة فسنحاول في المباحث اللاحقة الالتزام بالمجال التركيبي.

ج- التضمين يجعل الفعل المتعدي بحرف متعدي بآخر:

وهذه المرتبة من التضمين قد ثار حولها الكثير من الجدل، فخيوط التضمين في هذه الحالة متشابكة مع ظاهرة التناوب، والتي فصلنا الحديث عنها في المبحث الذي خصصناه لحروف الجر.

ومن الآيات التي جاء الفعل فيها متعديا بغير حرفه المعهود قوله ﴿* وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (هود 41)

يتعدى الفعل ركب بـ"على" وجاء في هذه الآية متعديا بـ"في" لتضمنه معنى "صيروا فيها" أو "ادخلوا فيها"¹ وإن الراكبين على السفينة قد يصيبهم شيء من شدة الطوفان، فليسوا بمنأى عن تلك الأمواج المتلاطمة والأمطار المنهمرة فجاء حرف "في" الدال على الانغماس و الدخول في الشيء كإشارة إلى أن السفينة تحتضن من فيها وتحيط بهم لحمايتهم من الطوفان.

¹ينظر: محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث القاهرة، القسم الأول، ج1، ص436

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الشَّمْرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ (إبراهيم 37)

جعل الفعل تهوي متعديا بـ"إلى" وهو متعد بـ" اللام"، فضمن معنى تميل إليهم¹
 قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ (الأنبياء 77)

يتعدى الفعل نصر بـ"على" وجاء متعديا بـ"من" لتضمنه معنى "نجيناه" أو "عصمناه" ويفسر ذلك السمرائي بقوله: "وأما (نصرناه منهم) فإنه بمعنى نجيناه منهم، أو منعناه منهم"²
 لم يتوقف السامرائي عند هذا الحد من التفسير بل يذهب أعمق من ذلك إذ يحاول الوقوف على الفرق بين (نصرناه من...) و(نجيناه من ..) فيقول: " و الجواب أن التنجية تتعلق بالناجي فقط ، فعندما تقول : (نجيته منهم) كان المعنى أنك خلصته منهم، ولم تذكر أنك تعرضت للآخرين بشيء ... أما النصر منه ففيه جانبان في الغالب : جانب في الغالب: جانب الناجي ، وجانب الذي نُجِّي منهم ، فعندما تقول: (نصرته منهم) كان المعنى أنك نجيته وعاقبت أولئك ، أو أخذت له حقه منهم"³
 وقد قال الطبري معلقا على هذه الآية: " وقوله: (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) يقول: ونصرنا نوحا على القوم الذين كذبوا بحججنا و أدلتنا ، فأنجيناه منهم، فأغرقتناهم أجمعين " ⁴

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ (التوبة 59) و (القلم 32)

عدي راغبون بالى وهو يتعدى بـ"عن وفي"، لتضمنه معنى الرجوع⁵

¹ ينظر : أبو حيان : البحر المحيط ج6، ص448، وكذلك عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، السم الأول، ج1، ص437
² السامرائي : معاني النحو ، ج 3 ، ص 12
³ السمرائي : المرجع السابق ، ج3، ص 13
⁴ الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج18، ص474
⁵ ينظر: عبد الخالق عضيمة المرجع نفسه، القسم الأول، ج3، ص441

د- جعل المتعدي بحرف الجر متعدياً بنفسه و المتعدي بنفسه متعدياً بالحرف:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا شَمُودٌ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا

لِشَمُودَ﴾ ﴿٦٨﴾ "هود: 68"

إن الفعل "جدد" هو فعل متعد بنفسه غير أنه جاء في هذه الآية الكريمة متعدياً بحرف الجر، كما أن الفعل كفر لا يصل إلى مفعوله إلا بحرف الجر، غير أنه جاء في هذه الآية متعدياً بنفسه، ويرجع ذلك إلى تضمن الفعل "جدد" لفعل الكفر كما أن الفعل كفر قد تضمن معنى الجحود.

وفي هذا الصدد يقول الألوسي: "وعدي (جدد) بالباء حملاً له على كفر لأنه المراد أو بتضمينه معناه كما أن (كفر) يجر مجرى (جدد) فيعدي بنفسه"¹

ويجدر بنا في هذه الحالة الإشارة إلى أن الفعل متى ما كان متعدياً بالحرف، وجاء في سياق المتعدي بنفسه جاز تخريجه على التضمين أو على نزع الخافض، وكثيراً ما تتداخل وتتشابك خيوط هاتين الظاهرتين، ويرجع ذلك إلى تعلقهما الشديد بظاهرة التعدية واللزوم و سنحاول في الأسطر الآتية تبيان طبيعة العلاقة الموجودة بين التضمين ونزع الخافض.

4- التعدية بين التضمين ونزع الخافض:

يقول التهانوي: "الحذف والإيصال عند أهل العربية عبارة عن حذف الجار وإيصال الفعل أو شبهه إلى المجرور"².

كثيراً ما تردد النحاة والمفسرون بين التضمين والنصب على نزع الخافض في تخريج بعض التراكيب أو الآيات القرآنية، بل قد نجدهم أحياناً يجمعون بينهما، بدون ترجيح وقد يرجع ذلك إلى كون كل من التضمين ونزع الخافض يشتركان في خلافهما للأصل.

¹الألوسي: المرجع نفسه، ج12، ص86، وينظر: تفسير ابن عطية "المحرر الوجيز"، ج3، ص183، وكذلك تفسير أبي حيان: البحر المحيط، ج6، ص170
²التهانوي: كشف كشف اصطلاحات الفنون ج1، ص436

ثم إن التضمين يقوم بالدرجة الأولى على توسيع إيهاب الفعل دلاليا حتى يتمكن من استيعاب الكثير من المعاني، أما ظاهرة نزع الخافض فإنما تعتمد بالدرجة الأولى على نظرية العامل ، حيث تجعل الفعل ينتقل من القصور إلى التعدية المباشرة دون أن تغير في البنية الدلالية للفعل.

ولو استقرنا كتب النحو والتفسير لوجدنا من الأمثلة على هذا التردد ما يصعب حصره، ونكتفي في هذه الأسطر ببعض النماذج.
ففي قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنَّ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ البقرة 235

علق أبو حيان الأندلسي على هذه الآية قائلا: "...وانتصاب عقدة، على المفعول به لتضمين: تعزموا معنى ما يتعدى بنفسه، فضمن معنى: تنووا، او معنى: تصحوا، أو معنى: توجبوا، أو معنى: تباشروا أو معنى: تقطعوا، أي: تبتوا. وقيل انتصب عقدة على المصدر، ومعنى تعزموا تعقدوا. وقيل انتصب على إسقاط حرف الجر"¹

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيُّ مِمَّا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 184

لا يصل الفعل "تطوع" إلى مفعوله إلا عن طريق حرف جر، وجاء في الآية متعديا بنفسه لتضمنه معنى الفعل "فعل أو أتى" ، كما يجوز أن يكون "خيرا" منصوبا على نزع الخافض²

¹ أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، ج2، ص525، وينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم : ق/1ج/3/455 -

456 وكذلك: مغني اللبيب ج2 ص341

²ينظر: البحر المحيط ج2، ص192

فإذا ما قلنا في هذين النموذجين بنزع الخافض ، فهذا يقتضي أن قولنا " عزم على الأمر " يكافئ دلاليا قولنا (عزم الأمر) ، وكذلك (تطوع بخير") يكافئ (تطوع خيرا) غير أن هذا لم يقل به أحد، وفي الوقت ذاته لم أقف على من تلمس الفرق بين العبارتين بل كثيرا ما يكتفي الشارح بالإشارة إلى أثر حذف الحرف، والمتمثل في النصب.

أما تخريج الآية على التضمين فيجعل الآية أكثر استيعابا للمعاني التي يحققها السياق، كما أن العبارة التي يرد فيها حرف الجر لا تكافئ دلاليا العبارة التي ينزع منها الحرف وهذا يتناسب مع حكمة هذه اللغة فالاختلاف في المباني يقتضي الاختلاف في المعاني

الخلاصة

وخلاصة ما توصلنا إليه من خلال هذا الفصل هو أن التضمين وإن كان مسلكه صعبا، فهو يتناسب مع روح اللغة العربية التي تحتمل كثيرا بالإيجاز، وترى في الحذف بلاغة قد يتقاصر الذكر عن تحقيقها ويعجز التصريح دونها وفي ذلك يقول ابن جني: " غورٌ من أنحاء العربية طريف ولطيف ومصون وبطين "1.

ثم إن تخريج بعض الآيات والعبارات على التضمين يجنبنا في الكثير من المواضع القول بالتناوب الذي يوقعنا في اشكالية قدرة الحرف على حمل معناه ومعاني الحروف التي يعاورها، كما يسلمنا من القول بالنصب على نزع الخافض وهاتان الظاهرتان الأخيرتان قد توقعنا في ضرب من التخبط وذلك بجعل عبارتين مختلفتين تركيبيا متفقتين دلاليا وهذا قد لا يتفق مع براعة ودقة العربية وقد تعرضنا إلى كل ذلك بالتحليل في الأسطر السابقة.

ونقتصر في هذا السياق على القول بأن غياب الحرف المؤلف مستبدلا بسواه أو حذف حرف الجر من العبارة أو نكره ينبئ أصالة بميلاد معنى جديد، فاختلاف المباني يقتضي اختلاف المعاني.

¹ابن جني : المحتسب، ج1، ص132

ونختم هذا الفصل بقرار مجمع اللغة العربية ومفاده أن التضمين "قياسي لا سماعي بشروط ثلاثة.

الأول: تحقق المناسبة بين الفعلين

الثاني: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.

الثالث: ملاءمة التضمين للذوق العربي.

ويوصى المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي¹ وقد علق صاحب النحو الوافي على القرار بقوله: " الذي ألاحظه في هذا القرار أن شروط "التضمين" المذكورة هي الشروط البلاغية المعروفة في المجاز"²

ولعل هذا الذي ذهب إليه المجمع من جانب وما أثبتته الأستاذ عباس حسن سيد لنا رواقاً ننفذ من خلاله إلى التضمين من حيث أنه ظاهرة بيانية وإن كنا قد حاولنا في الفصل السابق الحديث عن التضمين النحوي فإننا قد استشكلنا إبتداء الفصل بين النحو وعلم البيان في دراسة هذه الظاهرة وهذا لأن علوم العربية إنما هي كألوان الطيف لشعاع الضوء فخيوطه متداخلة وإنما كان الفصل لغرض وظيفي لا غير.

¹عباس حسن: النحو الوافي، ج2، ص594
²المرجع نفسه، هامش ص594

الفصل الثاني:

التضمين البياني

الفصل الثاني:

المبحث الأول : مفهوم التضمين البياني

المبحث الثاني : التضمين و أبواب البيان

المبحث الثالث : الشجاعة العربية قياسية

التضمين وفائدته

المبحث الأول: مفهوم التضمين البياني

خلصنا في الفصل السابق إلى أن التضمين "إشراب لفظ معنى لفظ آخر و إعطاؤه حكمه" لا يذهب إليه إلا بشروط ثلاثة: المناسبة ، الذوق العربي، والقرينة، ولقد ذهب عباس حسن إلى أن هذه الشروط هي الشروط البلاغية المعروفة في المجاز ولأن المجاز هو باب من أبواب علم البيان، فلا بد أن ننظر إلى ظاهرة التضمين من خلال عدسات علم البيان ولكننا نستشكل ذلك متى ما استحضرننا كل تلك الأبواب النحوية التي تجاذبت ظاهرة التضمين، .

1- مفهوم التضمين البياني:

إذا كان التضمين النحوي هو اشراب فعل معنى فعل آخر فإن التضمين البياني يكون بتقدير حال يناسبها المعمول المذكور بعدها، وتكون هذه الحال مأخوذة من الفعل المحذوف وهو على هذا يعد بابا من أبواب المجاز بالحذف وهذا ما ذهب إليه السعد ومن سار في نهجه وفي ذلك يقول الصبان: "وأما البياني فهو تقدير حال يناسبها المعمول بعدها لكونها تتعدى إليه على الوجه الذي وقع عليه ذلك المعمول و لا تناسب العامل قبلها لكونه لا يتعدى إلى ذلك المعمول على الوجه المذكور وهو قياسي اتفاقا لكونه من حذف العامل لدليل هذا ما درج عليه السعد ومتابعوه"¹

¹محمد بن علي الصبان "حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني" دار إحياء الكتب العربية القاهرة ، ج02/ص95

ويرى السيد الشريف أن اللفظ المذكور: " مستعمل في معناه الحقيقي فقط ، والمعنى الآخر مراد بلفظ محذوف يدل عليه ما هو من متعلقاته ، فتارة يجعل المذكور أصلا في الكلام و المحذوف حالا ... وتارة يعكس فيجعل المحذوف أصلا والمذكور مفعولا أو حالا"¹

ويستنبط من هذا الكلام أن الحال المحذوفة قد تقدر من الفعل المذكور أو من الفعل المقدر المحذوف، "فتارة يجعل المذكور أصلا في الكلام و المحذوف حالا كما في قوله تعالى: "ولتكبروا الله على ما هداكم" وكأنه قيل " ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم، وتارة يعكس فيجعل المحذوف أصلا و المذكور مفعولا"²

ولا يلزم في كل تضمين أن يكون المقدر حالا أو مفعولا به بل يكون المقدر على وفق المعنى المراد³ ففي تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ لِيَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ "الزمر 53". يقول الزمخشري: "... (أسرفوا على أنفسهم) جنوا عليها بالإسراف في المعاصي و الغلو فيها"⁴ ولم يقل جنوا عليها مسرفين كما أن الزمخشري قد جعل المحذوف أصلا.

و تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى موقف ابن كمال باشا الذي رفض التفريق بين التضمين النحوي و التضمين البياني فهو يرى: "أن التضمين البياني هو التضمين

¹الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأفاويل في وجوه التأويل ، ومعه حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين أبي الحسن الحسيني الجرجاني" انتشارات آفتاب تهران ، ج 1 / ص 126

²المرجع نفسه ج 1 / ص 126

³ينظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق "مجلة المجمع العلمي العربي سابقا، مج 55 / ج 1 / ص 67

⁴الزمخشري : الكشاف ، ج 4 ، ص 103

النحوي و إنما جاء الوهم للسعد من عبارة الكشاف حيث قدر خارجين عن أمره فتوهم

أنه تقدير لعامل آخر و ليس كذلك بل هو تفسير للفعل المضمن¹

ويبدو أن موقف ابن كمال باش من التضمين يتقارب مع تعريف المجمع القاهري

للتضمين فهو كما يقول الزعبلوي: "جاء يجمع بين تعريفه البياني و كثير مما قيل في

النحوي وهو لم يمنع على كل حال أن يجتمع للتضمين معنى الفعل المضمّن، ومؤدى

الفعل الآخر ولو قيل:(التضمين أن يضمن فعل أو ما في معناه معنى فعل...) أو (أن

يشرب فعل أو ما في معناه معنى فعل...) لكان أدل على ارادة المعنيين، ففي لفظ

التضمين احتواء شيء شيئاً آخر، وفي الاشراب جريان شيء في شيء²

ونخلص من هذا الاستعراض السريع إلى أن مصطلح التضمين البياني إنما ظهر عند

طائفة من الشراح وعلى رأسهم السعد التقتزاني، والسيد الشريف وكان ظهوره متأخرا عن

التضمين النحوي ثم إن معظم الذين قالوا بالتضمين البياني استندوا إلى ما ذهب إليه

السعد في حاشيته على الكشاف ولقد غلطه ابن كمال باش وعد ذلك من الوهم، ولعله

لم يجانب الصواب في هذا الذي ذهب إليه ونراه موقفا في رفضه التفريق بين التضمين

النحوي و التضمين البياني.

¹محمد بن علي الصبان "حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني" ج2
ص95/

²الزعبلوي : التضمين مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة المجمع العلمي العربي سابقا، المجلد 55، ج1/
ص81

ويمكن القول أن سبب هذا الجدل إنما يرجع إلى لحظة انفصال علم البيان عن علم النحو كما يمكن رده إلى أن لكل علم أدواته واهتماماته وأغراضه، ثم إن النتائج مرتبطة بزوايا النظر في التضمين كظاهرة لغوية متى ما نظر إليه من الناحية التركيبية فهو نحوي وإن نظر إليه من الناحية المعنوية والدلالية والجمالية فهو بياني ومثله في ذلك مثل التقديم والتأخير والحذف ورغم ذلك لم نجد من يقول بالحذف النحوي و الحذف البياني وهذا التداخل بين العلوم ليس حكرًا على علوم العربية بل نجده حتى بين أدق العلوم الدقيقة فقد تكون الظاهرة واحدة فتسلط عليها أدوات بحث مختلفة فيفسر عن ذلك تحليلات وتعليقات مختلفة باختلاف الأدوات المسلطة عليها.

2- التضمين بين علم البيان و علم النحو:

سبق و أن أكدنا أن أي مصطلح ينتمي إلى جهاز مفهومي ومحض معرفي يتشكل في كنفه فكرة قبل أن يستوي مصطلحاً/مفهوماً¹ فأي مصطلح يرتبط أول ما يرتبط في لحظة ميلاده بملايسات تاريخية وطأت له أرضية الرواج والتداول، فأما النحو فقد ارتبط منذ لحظة الولادة بظاهرة اللحن و سواء كان في تلاوة القرآن الكريم أو كان على لسان بنت أبي الأسود الدؤلي فاللحن هو الرحم الذي شهد ميلاده واما علم البيان فقد ارتبط بظاهرة الاعجاز القرآني ثم استلمه رواد علم الكلام.

¹ عبد الغاني بارة: المرجع السابق ص130

فالنحوي إذ يصادف ظاهرة التضمن يستحضر الاستقامة النحوية ويجعلها نصب عينيه فيوجه العبارة حتى تتناسب مع ما وضعه من قواعد

وأما البياني فهو يتلمس مواضع الفضيلة و الحسن في التضمن فالنحو يهتم أول ما يهتم بالسمت الصوابي أما علم البيان فيصوب نظره نحو الجوانب الجمالية التي تحفل بها هذه العبارة دون الأخرى.

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن النحوي "ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن

والوضع اللغوي يتسم بالصرامة والدقة فهو محصن بمصفوفات ذهنية يصعب اختراقها، أو تجاوزها أما الاستعمال فيميل إلى الثقل من هذه الصرامة الحدية،" فللغة العربية خصائصها التي تتجاوز أي نموذج عقلي مجرد أو نظام من القواعد الثابتة"¹ والبياني له جهاز مرهف يتحسس به تلك الثقلات.

والنحوي حينما وضع مصفوفات للأفعال المتعدية و الأفعال اللازمة جاءت العبارات التضمنية لتخرق هذه المصفوفات فما كان من النحوي إلا أن وجه هذه العبارات حتى تتوافق مع ما قعده من قواعد حتى تبقى العبارة في حدود القابلية النحوية، واستعان في ذلك بمبدأ " الحمل على المعنى " " ولا شك أن في التراكيب المحمولة على المعنى جورا

¹محمد مشال: البلاغة و لأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي ابن جني نونجا ، دار أفريقيا الشرق المررب 2007 ،ص56

على قواعد الصحة اللغوية من حيث بناؤها الظاهري غير أن التأويل قادر على ردها
الى النظام اللغوي¹

فمن ههنا جاء اهتمام النحوي بالتضمين على اعتباره أداة من أدوات **التوجيه النحوي**²
تمكن الوضع من مواكبة الاستعمال.

أما البياني فهو يتلمس مواضع الجمال من خلال هذا الخرق للقواعد الذي يجده في
التضمين فيتحسس مواضع الحسن فيؤول ويقدر المحذوف أ حالا كان أو مفعولا أو
غيرهما من الأركان و " الأمر الذي يثبت هو أن الحذف صورة بلاغية تكثف الدلالة
اذ تضع المتلقي بازاء جملة من المعاني المحتملة وكلها صالحة³ ولأكبر دليل على ذلك
هو تعامل المفسرين مع الآيات التي تضمنت هذه الظاهرة البيانية فتختلف التأويلات
وتتعدد التقديرات ولا يخرج مجملها عن المعاني التي تحتملها الآية الكريمة **فيصبح
المتلقي منتجا للدلالة** وهذا من أجمل ثمرات التضمين من زاوية البيان.

وان التضمين وفق هذا المنظور البياني هو وجه من أوجه ما سماه ابن جني ب"شجاعة
العربية" فهي " نوع من الاختيار الأسلوبي انه الاختيار المخالف لأصل القاعدة
أولمقتضى ظاهر الكلام"⁴

¹ محمد مشال : المرجع السابق ص92

² تمام حسان: **الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو - فقه اللغة - البلاغة**، ص143

³ محمد مشال : المرجع السابق ص151

⁴ محمد مشال : المرجع السابق ص122

ومن ثم فيبدو لنا أن التضمين النحوي و التضمين البياني إنما هو ظاهرة واحدة منظور إليها من زاويتين: فالنحوي يوجه العبارة حتى لا تخرج عن السمة الصوابي و البياني ينمق العبارة ويمتاز جمالها ويجلي جلالها.

المبحث الثاني: التضمين وأبواب البيان

إن أهم فائدة يؤديها التضمين هي الجمع بين معنيين وهذا ما يؤكد ابن هشام في قوله: " و فائدته (أي التضمين) أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين قال الزمخشري: ألا ترى كيف رجع معنى (ولا تعد عيناك عنهم)الكهف28 إلى قولك : ولا تقتحم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم¹ وقد علق الأمير على ذلك في حاشيته بقوله: " وقوله "على معنى كلمتين" ظاهر الجمع بين الحقيقة و المجاز"²

ولما كان التضمين يجمع بين معنيين على سبيل اشراب فعل معنى فعل آخر على حد قول النحاة أو كان بتقدير حال تناسب المعمول بعدها على مذهب البياني ، فقد اختلف العلماء في طبيعة هذين المعنيين وكانت هذه النقطة مثار جدل طال وما أرسى على قول يمكن الاحتكام إليه وقد نقل عباس حسن شيئاً من هذا الاختلاف والذي كان على ثمانية أوجه³

ومن هذه الأوجه من أنكر أن يجمع التضمين بين معنيين مقصودين في سياق واحد وفي ذلك ابطال لظاهرة التضمين وحجتهم في ذلك : " أن اللفظ إذا كان مستعملاً في

¹ ابن هشام الأنصاري :مغني اللبيب ، ج2 ص341

² جمال الدين ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار الفكر، ج 1 ، ص27

³ عباس حسن: النحو الوافي ،ج2، ص574، 575، 576، 577،

المعنيين معا كان جمعا بين الحقيقة والمجاز ، وإن كان مستعملا في أحدهما فلم يقصد به الآخر فلا تضمين"¹

و فئة ترى أن اللفظ المذكور : " هو مستعمل في معناه الحقيقي فقط، والمعنى الآخر مراد بلفظ محذوف يدل عليه ذكر ما هو من متعلقاته"²

وفئة ثالثة ترى أن لابد في التضمين من ارادة معنيين في لفظ واحد على وجه يكون كل منهما بعض المراد،

وفئة رابعة تقول بجواز الجمع بين الحقيقة و المجاز و إن هذا الاضطراب و التباين في الآراء هو الذي جعل التضمين يتداخل مع معظم الظواهر البيانية من مجاز وكناية واستعارة وسنحاول تتبع خيوط هذا التداخل مع أبواب علم البيان .

1- التضمين بين الحقيقة و المجاز:

يعد باب الحقيقة والمجاز من أهم مباحث علم البيان وليس من باب من أبواب هذا العلم الا وهو مرتبط به ولنبدأ بتعريف هذين المصطلحين:

أما الحقيقة فهي " الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم وتأخير"³

¹ المرجع السابق : ج 2 ، ص 575

² المرجع السابق : ج 2 ، ص 567، 577

³ جلال الدين السيوطي: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي ،المطبعة العصرية صيد -لبنان ، 1428/2007 ، ج 1 ، ص 285

وفي هذا يقول الجرجاني: "كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح وإن شئت قلت: في مواضع - وقوعا لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة. وهذه العبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث في قبيلة أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلا أو تحدث اليوم"¹

والوضع هنا لا يقصد به الوضع الأول أي وضع الواضع الذي ابتداء اللغة وإنما هو وضع متجدد عبر الزمن فهو كما يواضع الرجل قومه في اسم ابنه، متواجد عند مختلف الأمم وليس خاصا بلغة دون أخرى

والحقيقة أنواع ثلاثة " لغوية وشرعية وعرفية خاصة أو عامة ؛لأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية، وإن كان الشارع فشرعية، و إلا فعرفية"²

وأما المجاز فهو " كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز...ومعنى الملاحظة هو أنها تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن إلى أن هذا الاستناد يقوى ويضعف"³

والملاحظة في هذ القول هي الموجودة بين المعنى الأول والمعنى الثاني ثم يفرق الجرجاني بعد ذلك بين ما علاقته المشابهة وما كان لغير المشابهة.

¹ الامام عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البياغن ، صححها السيد محمد رشيد رضا ،دار المعرفة بيروت لبنان ص303

² عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاحي علوم البلاغة مكتبة الآداب القاهرة ، ط 10 ، 1420هـ/1999م ج3 ، ص77

³ عبد القاهر الجرجاني: المصدر نفسه ص304

و من أشهر تعريفات المجاز كذلك قولهم : " المجاز هو اللفظ المستخدم في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي"¹

والفائدة التي يضيفها هذا التعريف هي وجوب وجود قرينة تمنع من ورود المعنى الحقيقي وهذا على مذهب البيانين إذ أن الأصوليين لا يشترطونها في المجاز.

ولكن ما علاقة كل هذا الذي عرضناه بالتضمنين؟ ومن أين يرتبط التضمنين بالحقيقة والمجاز؟

ولنسلم ابتداء بأن النظم يتكون من مجموعة من الوحدات اللسانية تتشأ بينها علاقات تركيبية، وقد تسبب إحدى الوحدات توترا في السياق التركيبي يجعل العبارات غير مفيدة، ذلك أن هذه الوحدة وردت في غير بيئتها المعتادة ولا يهدأ هذا التوتر الا باستدعاء دلالة جديدة ترد للنظم جماله ولتكن هذه الوحدة هي الفعل.

فالفعل قد يستعمل في غير سياقه المعتاد، وفي هذا إشارة إلى ميلاد معنى جديد، يناسب بقية الوحدات تركيبيا ويقارب الفعل المذكور دلاليا، وترشدنا القرينة اللفظية أو المعنوية إلى هذا المعنى الجديد فمثلا في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ " إبراهيم 3"

إن الفعل (يستحبون) لا يتعدى بحرف الجر "على" فهو بؤرة التوتر في هذه العبارة ولقد تضمن الفعل معنى "الايثار و التفضيل" ذلك أن الفعل (يفضلون) يتناسب مع السياق

¹عبد الواحد الشيخ : العلاقات الدلالية و التراث البلاغي العربي ، مطبعة الاشعاع الفني ، الطبعة الأولى 1419/1999م ، ص20

تركيبيا و يتفق مع فعل المحبة دلاليا فكل محبوب مفضل و القرينة التي استدعت فعل التفضيل هي حرف الجر "على"

و يجدر بنا في هذا السياق الاشارة إلى أن القرينة في التضمن ليست مانعة كما نجدها في مختلف العلاقات المجازية بل هي قرينة استدعاء دلالية¹ فهي لا تمنع من ورود المعنى الحقيقي بل تسمح بميلاد دلالات جديدة فإذا كانت الأولى تضيق من المجال الدلالي فإن الثانية توسع إيهاب الفعل حتى يستوعب دلالات جديدة تهيو للفعل حسن الجوار، وتجعله منسجما مع بقية وحدات التركيب.

2- التضمن و الكناية

أ - مفهوم الكناية

" الكناية كلام استتر المراد منه بالاستعمال و إن كان معناه ظاهرا في اللغة سواء كان المراد به الحقيقة أو المجاز فيكون تردده فيما أريد به فلا بد فيه من النية أو ما يقوم مقامها من دلالة الحال ليزول التردد، و الكناية عند علماء البيان أن يعبر عن شيء بلفظ غير صريح في الدلالة عليه"² وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني " و المراد بالكناية ههنا: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه و ردفه في الوجود، فيومئ به إليه، و يجعله

¹* ينظر محمد محمد يونس علي : المعنى و ظلال المعنى ص341 وهذا فيما يخص قرينة الاستدعاء الوظيفي وقرينة الاستدعاء المنطقي

²محمد عبد الرؤوف المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر بيروت -دمشق ط1، 1410 هـ، تحقيق محمد رضوان الدابة، ص610 و ينظر علي بن محمد علي الجرجاني: التعريفات، دار الكتاب العربي بيروت، ط 1405هـ تحقيق ابراهيم الأبياري، ص240

دليلا عليه؛ مثال ذلك قولهم: "كثير رماد القدر" يعنون كثير القرى...ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه في الوجود، و أن يكون إذا كان¹ فالكناية إذن هي أن يراد معنى من المعاني فيعدل مستعمل اللغة عن اللفظ الموضوع لذلك المعنى المراد إلى معنى يلازمه في الوجود، فيكون اللفظ المستعمل قنطرة نعبر من خلالها بأفهامنا إلى المعنى المقصود أو المراد، وليس يقصد باللفظ ههنا إلا المعنى الذي يدل عليه وذلك لأنه "محال من حيث يعلم كل عاقل أنه لا يكنى باللفظ عن اللفظ و أنه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى"² إذن فالكناية هي انتقال من المعنى الأول المرتبط باللفظ المذكور إلى المعنى الثاني وهو المراد المقصود.

ولقد ثار جدل حول دلالة الكناية على هذين المعنيين فمن علماء البيان من يرى أن الكناية تجمع بين الحقيقة والمجاز مثل ابن الأثير³، ومنهم من يرى استحالة ذلك نحو ابن طباطبا⁴ ثم اختلف في تصنيف الكناية فثمة من جعلها بابا من أبواب المجاز كالعالمين الذين ذكرناهما سلفا و منهم من جعلها ظاهرة بيانية خارجة عن المجاز ومنهم الرازي⁵

ولقد لخص صاحب الكليات اختلاف العلماء حول حقيقة الكناية في قوله: "في الكناية أربعة مذاهب أحدها أنها حقيقة لأنها استعملت فيما وضعت له وأريد بها الدلالة على

¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية صيدا - بيروت، ط1 1421هـ/2000م،

ص113

² عبد القاهر الجرجاني: المرجع السابق، ص409

³ ينظر المثل السائر القسم الثاني ص50

⁴ المنهاج ص314

⁵ نهاية الإيجاز ص122

غيره والثاني أنها مجاز والثالث أنها لا حقيقة ولا مجاز والرابع أنها تقسم إليهما فإن استعملت اللفظ في معناه مرادا منه لازم المعنى أيضا فهو حقيقة وإن لم يرد المعنى بل عبر بالملزوم عن اللازم فهو مجاز¹

ولا نريد أن نستعرض هذا الجدل إذ ليس يفيد موضوعنا في شيئا و لو أردنا أن نبسط فكرة الكناية فهي أن يكون المعنى الأول يلزم المعنى الثاني في الوجود، فطول النجاد يستلزم طول قامة صاحبه و كثرة الرماد تدل على القرى كما أن نوم الضحى يدل على الغنى و الترف ولعل هذه الأمثلة هي أهم الأمثلة التي قد نجدها في مختلف كتب البلاغة.

ولكن هل حقا أن هذه المعاني الأولى يلزم عنها المعاني الثانية؟ أما أن هذه التراكيب التي يستشهد بها علماء البيان إنما هي تراكيب كنائية نشأت في بيئة معينة وتعبر عن روح واقع قد لفظ أنفاسه منذ زمن و قد لا تصلح هذه الكنايات لبيئة أخرى ؟ ثم إنا لنلمس سلطة الواقع في هذه التراكيب وليس من الممكن أن نغفل ذلك، فهذه النماذج " خاضعة لعرف لغوي في بيئة محددة ، ثم تتغير الأنماط الاجتماعية و الأداء اللغوي وتتحول جميع نماذجها إلى تعبيرات محنطة نضطر لكي ندرك دلالتها علينا أن نحيي الموتى وأن نغيب عن وعينا بنبض عصرنا و لغته ونتمثل بيئة بها "طويل النجاد"²

¹ أبو البقاء الكفوي : الكليات ص1290
²رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور ، منشأة المعارف الإسكندرية، ط1، د/ت ، ص423

ومن ثم فإن الكناية من أشد الأنماط التعبير لوصفا بالبيئة التي نشأت فيها ولا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى أسيقة محدودة ومقامات معلومة تجلي معانيها وفي الأسطر الآتية نزيد هذا الكلام توضيحا.

ب - الفرق بين التضمين و الكناية:

وإن هذا التحديد لمفهوم الكناية هو الذي دفع بعض علماء البيان إلى القول بدخول التضمين تحت باب الكناية فالتضمين كذلك يجري في لفظ يراد منه معنيان غير أنه يمكن الرد على هذا الزعم من زاويتين:

أما الأولى : فهي أن المعنى الأول في الكناية غير مقصود لذاته بل يتوسل من أجل الوصول إلى المعنى الثاني وهو المقصود، أما في التضمين فالمعنيان مقصودان وفي ذلك يقول صاحب الكليات : "المعنى الحقيقي في الكناية مقصود بالإفادة لكن لا لذاته بل لتقدير المكنى عنه وبه تفارق الكناية التضمين"¹

فقولنا كثير الرماد لم نقصد به إلا لازم معناه وهو الكرم، أما لو قلنا: عين يشرب بها المسافرون ونحن نعلم أن الفعل شرب لا يقترن بالـ"ب" فكان هذا دليلا على ميلاد معنى جديد وهو الشبع.

و أما في قوله تعالى : "عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6) الانسان) فالفعل يشرب قد تضمن معنى التلذذ لأن الذين يدخلون الجنة لا يشربون عن عطش بل يشربون

¹ أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفومي : كتاب الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش -محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت - 1419هـ/1998م، ص1215

للتلذذ. فالشرب واقع بالتحقيق ولكن نلاحظ معه معنى ثان يرشدنا اليه حرف الجر ويتناسب مع الحرف تركيبيا و مع الفعل دلاليا.

وأما الثانية: فهي أن الكناية شديدة الارتباط بالبيئة التي ولدت فيها لصيقة بالحياة الاجتماعية وقد يصعب كشف حقيقة بعض الكنايات ما لم نعد إلى البيئة التي نشأت فيها فمثلا كثير الرماد إن لم نستحضر مجتمعا ينضج طعامه على النار لم نفهم من هذا التركيب معنى الكرم و لو قلنا مثلا أمريكا كثيرة الرماد ربما فهمنا من هذا التركيب أن أمريكا كثيرة الخراب والدمار وحيثما حلت أوقدت نار الحرب.

ومن هنا يمكن القول أن لكل بيئة كناياتها، وتداول مثلا هذه الكنايات التي لا ترتبط بواقعنا قد يعود إلى الدرس البلاغي الذي قصر تفكيره على أمثلة محدودة، حتى لكأن اللغة العربية عجزت عن أن تبدع كنايات جديدة وأما لو قارناها بالعامية فسنجدها قد أبدعت من الكنايات ما لا يكاد يحصى وقد يرجع ذلك إلى تداولها في مختلف مجالات الحياة.

و أما التضمين فهو يرتبط بالمجال اللساني، و العبارة التضمينية تنشأ من وحدة لسانية خلقت نوعا من التوتر داخل التركيب وهو توتر لا يسكن إلا عن طريق التأويل، فلو عدنا إلى المثال السابق فإن فعل الشرب إذ ارتبط بالـ"ب" ضمنه معنى الشبع أو التلذذ ولا علاقة لكل هذا بالبيئة أو السياق الخارجي وإن كنا قد نستعين ببعض المحددات السياقية الخارجة عن النص ولكن هذه المحددات ليست ضرورية وإن كانت مهمة.

وخلص القول فإن التضمين لا يمكن أن يكون صورة من صور الكناية وذلك للاعتبارات التي ذكرناها ثم إن الكناية لا تحمل أكثر من دلالة وقد تكون صفة أوموصوف أو نسبة فطول النجاد يدل على الطول و " بنت عدنان " كناية على اللغة العربية ودلالاتها يمكن استنباطها عن طريق علاقة التلازم أو العرف أما التضمين فاجتهاد يحدد مسار الفعل و يجعل العبارة مفتوحة على جملة من الاحتمالات فيصبح القارئ متفاعلا منتجا للدلالات على حسب ثقافته وتمكنه من اللسان العربي.

3- التضمين والاستعارة

لقد اهتم علماء البيان كثيرا بالاستعارة فجردوا لها من العزم ما جردوا حتى يستكنهوا أسرارها ويتقنوا طرائقها، فاختلّفوا في دراستها منهجا، فمنهم من اهتم بالجانب التنظيري ومنهم من انشغل بالجانب الجمالي¹ وتقاطعت الرؤى في فهم حقيقة الاستعارة وطبيعة ابداعها الفني، و ان الباحث في هذا الباب ليلمس شيئا من الارتباك في توضيح حد هذا الباب فمنهم من ضيق حدودها فقصرها على علاقة المشابهة ومنهم من وسع ايهابها حتى تداخلت مع معظم صور المجاز.

¹ ينظر أبو هلال العسكري : الصناعتين ص8

أ - تعريف الاستعارة:

فهذا الجاحظ يرى أن الاستعارة هي: "تسميت الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"¹ ولم يحدد الجاحظ في تعريفه هذا ما الذي يجعل الاسم يقوم مقام غيره؟ فهذا التعريف يبدو عاماً و أقصى ما يمكننا أن نستشفه منه هو أن الاستعارة هي عبارة عن عملية نقل أو استبدال اسم بغيره

وأما ابن قتيبة فعلى أنه يؤكد أن الاستعارة هي وضع كلمة بدل أخرى غير أنه لم يقف عند هذا الحد بل حاول أن يرصد جملة العلاقات التي تربط بين اللفظة المستعارة والمستعارة لها وفي هذا الصدد يقول: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاور لها أو مشاكل"² وهذا الذي ذهب إليه ابن قتيبة يؤكد الأمدي في موازنته إذ يقول: " وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه في بعض أحواله أو كان سببا من أسبابه"³ و أما عبد القاهر فيحصر العلاقة في المشابهة فهي عنده: "ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل"⁴

ويعرف الاستعارة بقوله: " فالاستعارة : أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتطهره وتجيء الى اسم المشبه به فتعيه المشبه وتجره عليه"⁵

¹ أبو عثمان الجاحظ : البيان و التبيين ج 1 ص152

² تأويل مشكل القرآن ص106

³ الأمدي الموازنة ص88

⁴ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص15

⁵ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص114

ولم يكد عبد القاهر يتجاوز هذه العلاقة بل إنه ليجعل التشبيه أصلا لكل استعارة فيؤكد ذلك قائلاً: " و التشبيه كالأصل في الاستعارة إذ هي شبه بالفرع له أو صورة مقتضية من صورته"¹

فالدارس للاستعارة عليه ان يكشف ابتداء عن التشبيه الذي تولدت عنه الاستعارة و كلما كان ركنا التشبيه متباعدين كانت الاستعارة أحسن وإنهم أحيانا يردون الاستعارة الى تشبيهه قد لا تستسيغه النفس ويمجه الذوق العربي وفي ذلك يقول الجرجاني: "واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما أردت التشبيه اخفاء ازدادت الاستعارة حسنا حتى انك تراها أغرب ما تكون اذا كان الكلام قد ألف تأليفا إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شيء تعافه النفس و يلفظه السمع"²

و أهم ما يمكن استنباطه من هذه التعاريف هو أن الدرس البياني وهو يبحث في الاستعارة انما يوجه اهتمامه إلى الحقيقة المستترة خلف الاستعارة، وهو يحاول أن يكشف عن التشبيه الذي تولدت عنه الاستعارة و لكأنه في كل ذلك يستحضر الأشياء بعينها ويجعلها في معادلات ذهنية تترابط عناصرها بعلاقات محدودة فقولك رأيت أسدا في ساحة الحرب يعني أنك رأيت رجلا كالأسد تثبت له بذلك قوة وشجاعة كما هي ثابتة عند الأسد، أو ربما قد "تدعي للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد"³ فتكون بذلك تشبهه بما من خصائصه اليد ولكن هذه التحليلات المنطقية قد لا تتناسب مع

¹ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة ص22

² المرجع السابق ص207

³ دلائل الاعجاز ص 114

اللحظات الابداعية المتلبسة بأجواء وجدانية خاصة " فالاستعارة عملية خلق جديد في اللغة و لغة داخل اللغة ... وبها تحدث اذابة لعناصر الواقع ليعاد تركيبها من جديد وهي بذلك تضيف وجودا جديدا"¹ زمن هنا فإن محاولة تسليط الأشياء الواقعية والنظرة العقلية على العبارة الاستعارية المتولدة من نشاط المخيلة في لحظة سيفقد الاستعارة جمالها ورونقها

ب - الفرق بين التضمين و الاستعارة

إذا ما سلمنا بأن الاستعارة تجمع بين شيئين بعلاقة المشابهة فعملية اقتناص أوجه الشبه عملية معقدة فهي قد لا تكون موجودة في الواقع والمخيلة هي التي تعمل على ربط هذه العناصر المتباعدة حتى تشكل صورة تطمئن النفس لها فتؤدي الغرض المتوخى منها وعلى هذا فإن الاستعارة "هي الوسيلة العظمى التي يجمع الذهن بواسطتها أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل و ذلك لأجل التأثير وينجم هذا التأثير عن جمع هذه الأشياء وعن العلاقة التي ينشئها الذهن بينها"² فالأشياء المتباعدة في الواقع تصبح متقاربة عن طريق العلاقة التي ينشئها العقل بينها.

ومن هذه الزاوية قد تتداخل الاستعارة مع التضمين وذلك أن العبارة التضمينية تنشئ نوعا من التوتر داخل التركيب فتبدو الألفاظ المتجاورة غير مستأنسة متوترة مضطربة ولا يسكن ذلك الاضطراب و التوتر إلى بعد تضمين الفعل المذكور معنى فعل آخر

¹ فلسفة البلاغة بي التقنية و التطورص 403
² المرجع السابق : ص396

ينشأ منهما تفسير مريح ووضوح في الدلالة ويزيل التوتر بين المفردات ففي قوله تعالى: "ومن ضل فإنما يضل عليها و لا تزر وازرة وزر أخرى" (الاسراء 15) إن الفعل "ضل" وهو متعد بالحرف "على" ينشئ ضرباً من التوتر و الخلل في العبارة وهو توتر لا يسكن إلا بتضمين الفعل معنى (جنى أو جرم أو أجرم)¹

وانطلقاً من هذا فإن التوتر في الاستعارة متولد من ربط شيئين متباعدين في الواقع وينتفي هذا التوتر عن طريق الربط بينهم بعلاقة ما ويتشكل من هذا الربط صورة رمزية ذهنية تطمئن النفس لها

على خلاف التوتر في التضمين الذي ينشأ أصالة من توتر حاصل في التركيب والذي لا يسكن إلا باستحضار معنى فعل يسترجع السياق من خلاله تلك العلاقات الموجودة بين المفردات والتي تنتظم بدورها في نسق هادف. إذاً فالتضمين و الاستعارة كلاهما يخلق ضرباً من التوتر والتشويش على الذهن و يختلفان في نوعه وكيفية تجاوزه، و"كلما كان الطرفان المقترنان بعيدين كان التوتر الذي يولده هذا الاقتران بالطبع أقوى و هذا التوتر أشبه ما يكون بتوتر القوس الذي هو السبب في قوة السهم المنطلق وسرعته" فكما زاد التوتر إن في التركيب أو في الصورة الذهنية كلما انشغل العقل بمحاولة إيجاد تفسير يطمئن له وهذا ما يجعل هذه التعابير أجمل وأرشق وأكثر حيوية أبية المراس ترفض تقييدها بمعادلات منطقية وتحمل من ماء الحياة ما تحمل ليجعلها متجددة دائماً.

¹ لينظر التضمين النحوي في القرآن الكريم ص449

هذا من جانب و من جانب آخر فإن الاستعارة تربط بين شيئين أو فكرتين من أجل التعبير على شيء واحد أو فكرة واحدة وفي هذا يقول الدكتور جونسون : " إن التعبير الاستعاري سمة رفيعة من سمات الأسلوب عندما يستعمل بشكل حسن لأنه يعطيك فكرتين في فكرة واحدة"¹

و أما التضمين فانه ينطلق من فكرة واحدة ليعبر عن فكرتين أو من معنى واحد ليؤدي غرض معينين فالجمع بين الفارس و الأسد في صورة ذهنية يخلق لنا جوا من البطولة و القوة و الشجاعة أما جعل الفعل "خلا" يرتبط بحرف الجر " إلى " فإن الفعل يدل ابتداء على الخلوة و يستدعي حرف الجر معنى الشعور بالطمأنينة و الارتياح فيصبح معنى قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْقَوْمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ "البقرة 14"

قوله قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْقَوْمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

قَالُوا اتَّخَذْتُنَّهِمْ إِمَافَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿٧٦﴾ ﴾ البقرة 76

أي اذا خلوا وكانوا بمعزل عن كل رقيب اطمأنوا و ارتاحوا إلى شياطينهم فقالوا انا معكم فغرض التضمين مثلما قال صاحب المغني هو أن تؤدي الكلمة مؤدى كلمتين²

¹ أيفور أرمسترونغ ريتشاردز : فلسفة البلاغة ترجمة سعيد الغانمي ، وناصر حلوي افريقيا الشرق ط 2002 ، ص95
²مغني اللبيب : ج 2 ، ص341

هذا ولقد رأى بعض اللغويين أن التضمين لا يتدخل مع الاستعارة جملة وإنما يتداخل مع نوع من أنواعها وهي الاستعارة التبعية ويرجعون هذا التداخل إلى أن الاستعارة التبعية تقع في الأفعال والمشتقات و الحروف وفي هذا السياق يرى احمد السكندري "أنه لما كان كل من التضمين والاستعارة في الحروف من قبيل التأويل والتوسع في استعمال اللفظ في غير معناه خاض علماء البيان في موضوع التضمين أي خوض فالاستعارة التبعية في الحروف ليست الا طريقا من طرق تخريج التضمين¹

وأما الزعبلوي فيرى أنه: "إذا كان التوسع في الحرف كان التضمين استعارة تبعية وإنما تجري الاستعارة في الحرف باستعارة متعلق معناه ثم استعارة الحرف نفسه تبعا له"²

ولو سلمنا جدلا أن الحرف قد يأتي بدل حرف آخر فيؤدي معناه فليس هذا من التضمين ذلك أن الحرف يصبح يدل على المعنى الثاني دون معناه الأصلي أما مع التضمين فإن اللفظ يدل على معنيين

4- التضمين و المجاز المرسل:

أ- مفهوم المجاز المرسل:

إن المجاز المرسل هو قسيم الاستعارة في باب المجاز بمعناه الواسع الذي يقابل الحقيقة وذلك لأن البلاغيين حينما ربطوا الاستعارة بعلاقة المشابهة جعلوا المجاز المرسل

¹التعدية والتضمين في الأفعال في العربية ص 100
²الزعبلوي مجلة مجمع اللغة العربية مج 55 ص 68

كإيهاب يحوي جملة العلاقات التي يمكن استنباطها ولذلك سمي مرسلا و لأنه كذلك فقد كان أداة مطواعة يوجهها العقل لخدمة مقاصده فالأصوليون يوظفونها في استنباطاتهم و أصحاب الفرق يوظفونها لخدمة مذاهبهم و المفسرون يوظفونها لتأويل الآية أو لتوجيه العبارات وإن هذا التوظيف الواسع للمجاز المرسل أسهم في كثرة علاقاته وتشعبها وإن هذه العلاقة المتمسكة بين اللفظ المستعمل و المعنى المراد هي نقطة التقارب بين المجاز و التضمين وقبل الخوض في ذلك علينا أن نقدم بكلمة في المجاز المرسل.

ب - المجاز المرسل و علاقاته:

السكاكي: " جاء في فصل بعنوان " المجاز اللغوي الراجع إلى المعنى المفيد الخالي عن المبالغة في التشبيه قال : " هو أن تعدي الكلمة عن مفهومها الأصلي بمعونة القرينة إلى غيره **لملاحظة** بينهما نحو أن تراد النعمة باليد و هي موضوعة للجارحة المخصوصة لتعلق النعمة بها و كذا إذا أردت القوة أو القدرة بها"¹

و جاء في بغية الايضاح : "هو ما كانت **العلاقة** بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير المشابهة كاليد إذا استعملت في النعمة"²

" والمجاز اللغوي يكون في اللفظ الواحد المنقول مما وضع له في اصطلاح التخاطب إلى غير ما وضع له **بقرينة** فيكون استعارة أو تشبيها أو بقرينة غير المشابهة فيكون

¹ المفتاح " ص365
² بغية الايضاح : ج 2، ص79

مجازا مرسلا وهذه العلاقة بنوعيتها هي المناسبة الخاصة بين المعنى المنقول عنه
والمنقول إليه"¹

فالمجاز هو انتقال من معنى أصلي إلى معنى فرعي متولد من السياق ويجب أن يكون
هذا الانتقال قائما على ملاحظة مناسبة بين المعنيين وتكون القرينة المانعة من ورود
المعنى الحقيقي عنصرا محرضا للعقل للبحث عن العلاقة بين المعنى المنقول عنه
والمنقول إليه.

ولقد اهتم البلاغيون كثيرا بتحديد هذه العلاقات فمنهم من رأى أنها "لا تخرج عن أربعة
محاور، يتفرع كل منها إلى علاقيتين"² ومنهم من جعلها تتجاوز ذلك بكثير فصاحب
البرهان عدّ أكثر من عشرين علاقة³ أما صاحب الاتقان فقد عد عشرين علاقة ثم جعل
أكثر من عشرين علاقة أخرى تحت عنوان إقامة صيغة مقام أخرى⁴ وفيما يلي نذكر
بعض العلاقات على سبيل التمثيل

ب-1_المسببية: وهي إطلاق المسبب على السبب.⁵ ومن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ غافر: ١٣

¹ علوم البلاغة ص 257
² الأصول تمام حسان ص 368
³ الرهان في علوم القرآن ص 161 إلى 184
⁴ الاتقان ص 556
⁵ الاتقان ص 554

والملاحظ في الآية الكريمة تعدي الفعل إلى غير ما يقع عليه في العادة، فالماء هو أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماعنا عبارة: "ينزل لكم من السماء" ، فتأتي لفظة "رزقا" لتخرق هذا التوقع ما يدفع العقل للبحث عن العلاقة الموجودة بين ما كان يتوقعه "الماء" ، وبين ما هو مذكور "الرزق" ليهتدي إلى أن الماء هو سبب الرزق ولا يخفى ما في ذلك من التلميح والايجاز ، بل إن لفظة الرزق تجوب بك عوالم شتى، فمن الماء ما يستقر في باطن الأرض ومنها ما يجري وديانا على سطحها ومنها ما يسقي الزرع ومنها ما يروي الأنعام وكل ذلك من فضل الله على خلقه فلفظة الرزق تجعل مجال الآية منفتحا ليستوعب كل رزق يرتبط بنزول الماء من السماء ، و أحيانا نجد القرآن الكريم يصرح بشيء من ذلك ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا

تَجْعَلُونَ لِلَّهِ أَدَاءً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ البقرة 22

ب-2- السببية: اطلاق السبب على المسبب نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ

يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا

يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ هود 20 أي القبول و العمل به لأنه مسبب

عن السمع¹

وجاء في تفسير الخازن قال قتادة صموا عن سمع الحق فلا يسمعون خيراً فينتفعون به ولا يبصرون خيراً فيأخذون به .²

وحاصل الكلام في هذا الاستدلال أنه تعالى أخبر عنهم أنهم لا يستطيعون السمع ، فإما أن يكون المراد أنهم ما كانوا يستطيعون سمع الأصوات والحروف ، وإما أن يكون مقصود الآية الكريمة ليس السمع فهذا مخالف للواقع وإنما المراد هو العمل بالمسموع أي كلام الله عز وجل وذكر السبب في هذه الآية وقصد المسبب لتبيان مدى ضلال القوم وزيغهم عن الامتثال لكلام الله عز وجل ولقد تهاووا في الضلال إلى دركة الدواب التي لا تفقه شيء مما تسمع و لا تبصر الآيات تدبراً فآلة السمع وآلة البصر لا تنفع القلوب اللاهية الغافلة

قَالَ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ البقرة: 194

¹ المرجع السابق ص554

² علاء الدين بن محمد الخازن : لباب التأويل في معاني التنزيل ، تحقيق محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط الأولى : 1415 ، ج 2 ، ص 479

ا إن الاعتداء بالقتل من صفة الظلمة فلا يعقل أن يأمرنا الله عز وجل بالاعتداء فإنه ﴿

لَا يُجِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩﴾ البقرة: 190 وإنما المقصود في الآية الكريمة هو القتل قصاصا

لا اعتداء فذكر السبب وهو الاعتداء و المقصود هو الجزاء و القصاص وهو المسبب

ب-3- الكلية:

يقصد بالعلاقة الكلية تسمية جزء الشيء باسم كله، بحيث يستعمل اللفظ الدال على

الكل و يراد الجزء منه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُمُتٌ

وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِيَّ إِذْ أَنهَم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ

بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ البقرة: 19

يلا يمكن حمل لفظة "اصابعهم" في الآية الكريمة على معناها الحقيقي وذلك لأنه يستحيل

على الفرد أن يضع كل أصبعه داخل أذنه لاتقاء الصواعق بل المقصود هو غلق الأذن

بالأنامل ويمكن تمثيل هذه العلاقة في الشكل الآتي:

المعنى المجازي

الأنامل (الجزء)

المعنى الحقيقي

العضو المعروف (الكل)

اللفظ

أصابعهم

ب-4- الجزئية:

وتكون هذه العلاقة بأن يذكر الجزء ويقصد الكل و يشترط في هذا الجزء الذي يراد به الكل أن يكون له مزيد اختصاص بالمعنى المقصود في السياق، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

مُؤْمِنَةً وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ... ﴿٩٢﴾ النساء: 92 إن ما يحزر هو العبد وليس

رقبته كما يستحيل وصف الرقبة -أي العضو- بالإيمان أو الكفر، ولكن الانسان هو الذي يتصف بتلك الصفات وذكرت الرقبة دون غيرها من الأعضاء لأنه عادة ما يوثق العبد من رقبته ولا يمكن للجزء أن يدل على الكل إلا إذا كان ذلك الجزء له اختصاص بالمعنى المراد كإطلاق العين على الجاسوس ويمكن تمثيل هذه العلاقة في الشكل الآتي:

المعنى المجازي

العبد (الكل)

المعنى الحقيقي

العضو المعروف (الجزء)

اللفظ

رقبة

ج- الفرق بين التضمنين و المجاز المرسل:

إن المجاز المرسل في أبسط تعريفاته هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة ، بقريئة مانعة من إرادة ما وضع له. و هذا التعريف على بساطته فهو يعطي لنا تصورا واضحا للمجاز المرسل بحيث يحدد أهم شروط المحققة للمجاز المرسل و المتمثلة في العلاقة بين اللفظ المستعمل و المعنى المراد و هي علاقة تستشف من السياق ثم القرينة المانعة من ورود المعنى الحقيقي للفظ المستعمل.

وأما التضمنين فهو اشراب فعل معنى فعل آخر مع اشتراط وجود مناسبة بين الفعلين وكثيرا ما تكون القرينة المستدعية للفعل المتضمن معنوية كالتعدية و اللزوم أولفظية كحروف الجر ومن هنا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الموجودة بين التضمنين والمجاز المرسل من زاويتين: المناسبة أو العلاقة ثم القرينة

إن علاقات المجاز المرسل التي حددها البيانين ما هي إلا محاولة لتوجيه بعض العبارات حتى تتناسب وقصد القائل من جانب ولا تصدم بواقع الحياة المحسوس من جانب آخر ففي قوله تعالى: "يجعلون أصابعهم في آذانهم" نجد لفظة أصابع تحدث نوعا من التصادم مع الواقع وذلك أنه يستحيل إدخال الأصبع كله في الأذن وهذا ما يدعو إلى ضرورة تأويل لفظة الأصبع بالأنملة حتى تتناسب العبارة مع الواقع من جانب، وقصد الآية من جانب آخر.

ويبدو أن هذا الأمر الذي نجده في مختلف علاقات المجاز المرسل ما هو إلا محاولة تجسير الهوة الموجودة بين العبارة و الواقع المحسوس من جانب و بين العبارة وقصد القائل من جانب آخر

و أما العبارة التضمينية فإن موضع التوتر فيها واقع على مستوى العبارة وليس في علاقتها بالواقع أي أن التوتر واقع على المستوى التركيبي حيث اللفظة ترد في غير سياقها المعهود فنشرب تلك اللفظة معنى لفظة أخرى ويشترط أن تكون هناك علاقة دلالية بين اللفظة المتضمنة و اللفظة المتضمنة وهذه العلاقة هي المناسبة بين اللفظتين وهذا ما يجعل اللفظ يحمل معناه ومعنى الآخر وهذا هو الفرق الجوهرى بين التضمين و المجاز المرسل ونستدل على ذلك بقول الزعبلوي: " الفعل المضمّن حين يشرب معنى الفعل الآخر فيضم إلى معناه الحقيقي معنى الفعل الملحوظ، فيدل على المعنيين جميعا... وعندي أن المجاز الذي ليس هو تضمينا ، ذلك الذي لا يستعمل به اللفظ في معناه ، و معنى الآخر جميعا . بل يتحول عن معناه الحقيقي إلى المعنى الآخر فيستعمل فيه لعلاقة بين المعنيين ، بقرينة مانعة من إرادة معناه الحقيقي"¹

هذا وإذا نقلنا محور المقارنة من العلاقة و المناسبة إلى القرينة وقارن بين القرينة في التضمين و القرينة في المجاز المرسل فإننا سنجدها في هذا الأخير تمنع من ورود المعنى الحقيقي للفظ المستعمل فاللفظ ينقل من المعنى الذي وضع له إلى الدلالة على

¹ الزعبلوي: ص 68 69

معنى مستشف من السياق و أما القرينة في التضمين فهي تستدعي المعنى الثاني دون أن تجرد اللفظ من معناه الحقيقي.

وخلاصة ما توصلنا إليه وهو أن التضمين كثيرا ما يتداخل مع مختلف الظواهر المجازية، باعتباره أسلوبا راقيا، يتجاوز المستوى التواصلية العادي ويستعمل عناصر اللغة استعمالا ابداعيا يخرج بها عما هو معتاد و مألوف وذلك بنقل العبارات و الألفاظ من المعنى الأصلي لها إلى معاني جديدة تستشف من السياق، " وهذا العدول الدلالي أو الانتقال من المعنى الأصلي للعبارة إلى معنى فرعي يفهم من السياق الذي تولد فيه، هو الاجراء المتحكم في جميع ظواهر المجاز من استعارات و كنايات؛ فالمعنى المراد توصيله في جميع الأحوال ليس مما يفهم من ظاهر اللفظ سواء أكان جملة أو لفظا مفردا، بل إنه مما يدرك بواسطة التأويل و الاستدلال"¹

خلاصة علاقة التضمين بأبواب البيان:

ولقد حاولنا الوقوف على نقاط التماس الموجودة بين التضمين ومختلف الظواهر المجازية، فوجدنا التضمين يتقاطع مع الكناية في إمكانية الجمع بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي غير أن المعنى الحقيقي في الكناية غير مقصود وفي التضمين هو جزء من المراد.

¹ محمد مشبال: البلاغة و الأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي، أفريقيا الشرق - المغرب 2007، ص162

وتتقاطع الاستعارة عموماً مع التضمين من حيث الجمع بين صورتين غير أن الاستعارة تجمع بين المستعار و المستعار له من أجل إنشاء صورة أو فكرة واحدة أما التضمين فهو ينطلق من شيء للدلالة على شيئين .

وأما المجاز المرسل فهو أكثر الصور المجازية تشابهاً مع التضمين، وذلك لأنه يقوم على ملاحظة العلاقة الموجودة بين اللفظ المذكور و المعنى المقصود كما التضمين يقوم على المناسبة الموجودة بين المتضمن و المتضمن

ولكن أهم ما خلصنا إليه من هذه المقارنة هو أن القرينة في مختلف الظواهر المجازية هي مانعة لورود المعنى الحقيقي أما في التضمين فقرينته تستدعي المعنى الثاني دون أن تلغي أو تحضّر المعنى الأول.

المبحث الثالث :

1- التضمين وشجاعة العربية:

يعد ابن جني أول من طرح مصطلح " شجاعة العربية " وخصص له باباً جعل تحته جملة من الأساليب التي شكلت تشكيلاً غير مألوف حيث يقول في باب شجاعة العربية: " اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، و الزيادة، والتقديم، و التأخير، و الحمل على المعنى، و التحريف"¹

¹ ابن جني : الخصائص م2 ، ص 140

و لقد أدرج ابن جني أسلوب التضمين في ظاهرة أو آلية الحمل على المعنى إذ يقول: "وباب الحمل على المعنى بحر لا ينكش*، ولا يفثج*، ولا يؤبى*، وقد أرينا وجهه، ووكنا الحال إلى قوة النظر و ملاطفة التأويل. ومنه باب من هذه اللغة واسعة لطيف طريف، وهو اتصال الفعل بحرف ليس مما يتعدى به ؛ لأنه في معنى فعل يتعدى به. من ذلك قوله تعالى: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم" (البقرة 187) لما كان في معنى الإفضاء عداه بالي. ¹

وكل هذه الظواهر التي ذكرها ابن جني هي عبارة عن اختيارات أسلوبية ينتقي مستعمل اللغة منها ما يتناسب مع المقام، وهي اختيارات مخالفة لأصل القاعدة، "فالشجاعة العربية تمثل طاقة اللغة في توليد الإمكانيات التعبيرية وخلق استعمالات تتجاوز بمرونتها و اتساعها كل القوالب الثابتة للنظام اللغوي المجرد"² فالأداء اللغوي لا يمكن البتة حبسه في أنماط تعبيرية محدودة أو تقيدته بمنظومة قواعدية ثابتة وهذا الذي يمكن اللغة من استيعاب عالم المعاني

* نكش الشيء : أتى عليه وفرغ منه،

* لا يفثج: لا يبلغ غوره.

* لا يؤبى: لا ينقطع من كثرتة.

¹ ابن جني : المرجع نفسه: م 2 ، ص 202

² محمد مشبال: المرجع نفسه ، ص 113

اللامحدود بأدوات محدودة ويعطي لها القدرة على التشكل في أساليب تعبيرية
إبداعية غير مألوفة

وهذا الذي يسميه الأصوليون بالعدول وهو الانزياح عند علماء الدلالة .
واللافت للانتباه في قول ابن جني هو تلك المكانة السامية التي جعلها ابن
جني لظاهرة التضمين والاسهاب في مدحه بجملة من الأوصاف التي جعلها
له دون غيره من الظواهر التي جعلها تحت ظاهرة الحمل على المعنى وتتجلى
ظاهرة شجاعة العربية في أبهى صورها في التضمين من حيث أنه ينتهك
المثاليات المألوفة في الأداء ويخلق نوعا من الاضطراب والخلل في المستوى
التركيبى مما يجعل المتلقي في حالة من قلق البحث عن المعنى المراد والذي
لا يسكن إلا بتدخل التضمين الذي يجسر الهوة بين العبارة والقصد وبين
المرسل والمتلقي.

وترجع جرأة العربي على انتهاك المنظومة القواعدية للغة والجور على قواعد
الصحة اللغوية من حيث بناؤها الظاهري، إلى ثقته في قدرة المتلقي على الفهم

عنه وفي ذلك يقول الجاحظ: "و للعرب اقدم على الكلام ثقة بفهم أصحابهم
عنهم وهذه أيضا فضيلة أخرى"¹

ومن هنا يمكن القول أن كل ظواهر شجاعة العربية و على رأسها التضمين
تتعلق بالمستوى التداولي للغة ولهذا المستوى قوانينه التي تضبط مجاله وهي
تختلف عن المجال الوضعي

2- قياسية التضمين:

لقد أنس علماء اللغة في تقرير قياس التضمين بقول ابن جني بعد توصيفه لظاهرة
التضمين: " ووجدت في اللغة شيئا كثيرا لا يكاد يحاط به و لعله لو جمع أكثره لا
جميعه لجا كتابا ضخما."² وقد اتكأ جمع من العلماء على هذه الكثرة للحكم على
التضمين بأنه قياسي، ونقل أبو حيان أن الأكثرين على أنه قياسي³ كما نص أبو حيان
في مواضع عدة من تفسيره بعدم قياسية التضمين⁴

وجاء في (شرح التصريح على التوضيح) " أختلف في التضمين أ هو قياسي ، أم
سماعي، و الأكثرون على أنه قياسي"⁵

ويرى صاحب الكليات أنه سماعي ولكن لشيوعه صار قياسيا⁶

¹ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، 1416 / 1996 لبنان / بيروت، ج 5، ص 32

² ابن جني: الخصائص، ج 2، ص 208

³ ارتشاف الضرب، ج 2، ص 46

⁴ البحر المحيط ج 1، ص 628، ج 2، ص 149

⁵ شرح التصريح على التوضيح، ج 2، ص 5

⁶ أبو البقاء الرندي: الكليات، ج 1، ص 195

وذهب مجمع اللغة العربية في القاهرة إلى إقرار قياسية التضمين و لكن بشروط ثلاثة:

" أولاً : تحقيق المناسبة بين الفعلين

ثانيا : وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ، و يؤمن معها اللبس.

ثالثا : ملاءمة التضمين للذوق العربي

ويوصي المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي."

3- فائدة التضمين:

من خلال تتبع تناول أهل العلم بالعربية لأسلوب التضمين يمكننا أن نتبين أمورا نعتها

من الفوائد المتوخاة من استعمال التضمين ونذكر منها:

أ- التوسع في المعنى:

يقول الزمخشري: " فإن قلت: أي غرض في هذا التضمين؟ وهلا قيل: ولا تعدهم

عينك، أو لا تل عينك عنهم؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك

أقوى من إعطاء معنى فذ"²

ويقول ابن هشام الأنصاري : "قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه وتسمى

تضمينا وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين"³

¹ تمام حسان : النحو الوافي

² الزمخشري : الكشاف ، ج 2 ، ص 717

³ ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب ، ج 1 ، ص 897

فالتضمين يوسع من إيهاب لفظ الفعل حتى يستوعب معنيين ويؤدي مؤدى كلمتين، وهذا لو استحضرننا مقولات النحاة ولكننا حينما نذهب إلى كتب التفسير فكثيرا ما نجد المفسر يذكر المعنى المتضمن ثم يعطف عليه معاني أخرى فكأنه يشعر في أسلوب التضمين حزمة من المعاني غير أن الخلفية النحوية تمنعه من القول بتعدد معاني الفعل المتضمن ولعل هذا ما يشير إليه عبد القادر الفاسي الفهري حيث يقول: "... وهذا التوجه، توجه تعدد الأحداث في الفعل البسيط يتعارض و التكبير التقليدي، الذي يفترض أن الفعل يدل على حدث واحد (إضافة إلى الزمن)، مع أن هناك ما يوحي بأن الحدث مركب في كثير من الحالات"¹

ب - الاقتصاد اللغوي:

يصنف التضمين ضمن آليات العدول فهو يرتبط بالمستوى التداولي للغة فهو ألصق بمستوى الاستعمال منه بمستوى الوضع وللاستعمال قوانينه الخاصة التي تناقض أحيانا مقاييس الوضع ولقد وضع الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح لكفاءة الاستعمال قانونيين رئيسيين: الاقتصاد والفائدة.

وفي هذا الصدد يقول: "وأساس القوانين التي بنى عليها الاستعمال اللغوي هما هذان المبدآن المتدافعان: الاقتصاد في المجهود العضلي و الذاكري الذي يحتاج إليه المرسل، و البيان الذي يحتاج إليه المرسل إليه."²

¹ عبد القادر الفاسي الفهري : المعجمة و التوسيط نظرات جديدة في قضايا اللغة العربية ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1993 ، ص9
² عبد الرحمان الحاج صالح : بحوث ودراسات في علوم اللسان ، موفم للنشر - الجزائر ، 2007 ، ص196

والتضمين يحقق هاتين الميزتين من حيث دلالاته على أكبر قدر من المعاني بأقل لفظ

ممكن كما أنه من أرقى الأساليب في مستويات البيان

ويقول الدكتور فاضل السمرائي: "فالتضمين غرض بلاغي لطيف ، و هو الجمع بين

معنيين بأخصر أسلوب، وذلك بذكر فعل وذكر حرف جر يستعمل مع فعل آخر فنكسب

بذلك معنيين ، معنى الفعل الأول و معنى الفعل الثاني."¹

ولا يخفا ما في ذلك من إيجاز واقتصاد في استعمال اللفظ مع تكثيف المعنى

ويقول في موضع آخر: "والعدول إلى طريقة ما في التعبير بأقصر طريق من ظواهر

العربية"²

ج - انسجام السياق:

تنشأ ظاهرة التضمين من خلال استعمال لفظ في غير سياقه المعهود كأن يستعمل

اللازم استعمال المتعدي أو يقترن الفعل بحرف جر يستعمل في فعل آخر ومن ثم

سنلمس في التركيب شيئاً من الخلل و القلق فيتدخل التضمين بإشراب الفعل المذكور

معنى فعل آخر يرتبط بالمذكور دلاليا و بالسياق تركيبيا فتسجم العبارة، ويسترجع

السياق تسلسله وتتابعه وتساوقه.

¹ فاضل السامرائي : معاني النحو ، ج3 ، ص 12

² المرجع السابق : ج3 ، ص 13

د- الجمع بين الحقيقة والمجاز:

وهذه الفائدة خاصة به دون غيره من بقية أساليب المجاز وإن كان للكناية إمكانية الدلالة على المعنى الحقيقي و المجازي غير أن العبارة الكنائية لا تجمع بينهما وإنما تريد أحدهما على سبيل التعيين و التخصيص أما التضمين .

هـ- التنبيه الأسلوبي:

إن مستعمل اللغة في حالة التواصل الكلامي كثيرا ما يستعمل جملة من الآليات التي تساعده على التواصل و الاقناع و التأثير و من هذه الآليات نبرة الصوت الإيماءات لغة الجسد وتعبيرات الوجه غير ان مستعمل اللغة الفنية المكتوبة يوظف آليات أخرى لغرض لفت الانتباه وتحقيق أعلا أداء ممكن للغة ومن هذه الآليات خرق ظاهرة الانزياح التي تخلق عنصر المفاجأة التي تثير انتباه القارئ.

يقول شكري محمد : " والكتابة الفنية تتطلب من الكاتب أن يفاجئ قارئه من حين إلى حين بعبارة تثير انتباهه حتى لا تقتر حماسه لمتابعة القراءة أو يفوته معنى يحرص الكاتب على إبلاغه إياه . وفي هذا تختلف الكتابة الفنية عن الاستعمال العادي للغة. فأنت في حديثك العادي تستطيع أن تلجأ إلى وسائل كثيرة مصاحبة للكلام كي تنبه سامعك إلى فحوى الرسالة... فكذاك وسائل اللغة التي يراد بها جذب الانتباه إنما تحدث ذلك بفضل ما فيها من المفاجأة أو الخروج عن سياق الكلام العادي"¹

¹ شكري محمد : اللغة و الابداع ، ص81

ويعد التضمين ظاهرة من ظواهر الخروج عن المألوف فترى الفعل في غير سياقه المعتاد فيستوقفك ذلك التوظيف ويستفزك للبحث عن سبب ذلك الانتهاك وهذا يقطع رتابة القراءة فالقارئ يشعر بالاضطراب و القلق على قدر ما يلاحظه من بعد العبارة عن المألوف وهذا ما يحرك في المتلقي روح الاستكشاف، وقلق البحث الذي يتناسب طرديا بمدى فقاوته باللغة وأساليبها وردود أفعال المتلقين تختلف باختلاف تمكنهم من ناصية اللغة.

"إننا ندرك من أول وهلة أن القارئ يمكن أن يستوقفه تعبير ما، يخيل إليه أنه خارج على المألوف بدرجة كافية ليعده انحرافا، ومن ثم يرى فيه سمة أسلوبية قوية يستدل بها على شعور الكاتب، أو على المعنى الذي يريد أن يثبتته في ذهن المتلقي مع أن قارئاً آخر أو قراء آخرين يمكن الا يتفقوا معه في ذلك." ¹

ويمكن أن نلمس هذا الاختلاف بصورة واضحة مع ظاهرة التضمين إذ تلمس مواضعه يحتاج إلى معرفة باللغة العربية وخبرة بأساليبها وإلا فكيف يمكن لمن كانت بضاعته في البيان مزجاة أن يرى الفرق بين عبارة " رفث إلى المرأة " و " رفث بها "

فقد يمر على قوله تعالى : (احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) {البقرة:187} دون أن يشعر بشيء ولهذا نجد "شبتسر" قد " شدد على صفات الأمانة و الإخلاص

¹ شكري محمد: المرجع نفسه ، ص82

والصبر في الدارس الأسلوبى الذى ينبغى بطبيعة الحال أن يكون خبيرا باللغة التى يقرؤها، ومدربا على هذا النوع من القراءة حتى لا يزيّف مواضع الاهتمام فى النص".¹

جمالية التعبير:

يقرر ريفاتير: "أن قيمة كل خاصية أسلوبية تتناسب مع حدة المفاجأة التى تحدثها تتناسب طرديا. بحيث كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على النفس المتقبل أعمق... و معناه أن الطاقة التأثيرية لخاصية أسلوبية تتناسب عكسيا مع توترها: فكلما تكررت نفس الخاصية فى النص ضعفت مقوماتها الأسلوبية معنى ذلك أن التكرار يفقدها شحنتها التأثيرية تدريجيا"²

فالعبرة كلما كانت مبتكرة غير مألوفة كانت أكثر تأثيرا وأجمل أسلوبا وكلما كانت معتادة فقدت قيمتها التأثيرية وبالتالي الجمالية تدريجيا حتى تصبح عبارة مبتذلة، أما ظاهرة التضمنين فإنها تكسب العبارة نوعا من التجدد الدلالي إذ مجالها الدلالي يبقى مفتوحا فكلما كان القارئ أكثر استبحارا فى اللغة كلما أفضت له من أسرارها، ثم عبارات التضمنين ليست متساوية من حيث انزياحها عن التعبير العادى فمثلا فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ

بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ البقرة: 76

¹ شكري محمد : المرجع السابق ، ص 82
² عبد السلام المسدي : الأسلوب و الأسلوبية ، ص 86

قد لا يشعر القارئ العادي في هذه الآية الكريمة بحرف الجر (إلى) الذي جاء في غير سياقه المؤلف، حيث جاء متعلقا بالفعل (خلا) الذي يتعدى ب (ب) وأما في قوله

تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ الإنسان:6 لمجرد أن تقرأ الآية

يفاجئك حرف (ب)، فالفعل "شرب" يكثر وروده مع حرف (من). ففي الآيتين

الكريمتين نلمس قيمة المفاجأة غير أنه لا يمكننا الوقوف على قيمتها وجماليتها إلا

بعد تفسير العبارتين ووضع الحرفين في سياقهما عن طريق التضمين.

هـ - تفاعل القارئ :

ومن فوائد التضمين أنه ينقل القارئ من المتلقي السلبي إلى المتلقي الفاعل حيث يساهم

القارئ في إعادة تشكيل النص فهما وتأويلا فالعبارة التضمينية تستفز المتلقي وتحثه

على ضرورة التفاعل مع العبارة لمحاولة رفع القلق والاضطراب الذي ينشئه عدم

استعمال الحرف أو الفعل في غير سياقه المعتاد.

وهنا تظهر قدرة المتلقي في توجيه العبارة وتتجلى فقاوته باللغة وأسرار أساليبها ينتقي

من معاني الفعل ما يناسب السياق ويقصي ما قد ينشئ التعارض و التناقض في النص

فيقول ما لم تقله العبارة صراحة مسترشدا في ذلك بألفاظها ومتكئا على معرفته بلطائف

اللغة و أساليبها.

الفصل الثالث:

التضمين والسياق القرآني

الفصل الثالث

التضمنين والسياق القرآني

المطلب الأول : السياق العام

المطلب الثاني: السياق القرآني

المطلب الثالث : السياق القرآني

والتضمنين

المطلب الأول: مفهوم السياق

1-تعريف السياق لغة

قال ابن فراس: "السين و الواو والقاف أصل واحد، وهو: حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا، والسَّيِّفة من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، و أسقته. و السَّوق مشتقة من هذا؛ لما يساق إليها من كل شيء، و الجمع أسواق، و الساق للإنسان و غيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الإنسان ينساق عليها"¹

وقال الجوهري: "يقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد: أي بعضهم على إثر بعض، ليس بينهم جارية، و السياق نزع الروح، يقال: رأين فلانا يسوق: أي ينزع عند الموت"²

وقال ابن منظور: "انسأقت و تساوقت الابل تساوقا: إذا تتابعت، وكذلك تقاودت، فهي متقاودة ومتساوقة وفي حديث أم معبد: " فجاء زوجها يسوق أعزما ما تساوق" أي: ما تتابع و المساوقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضا،...ساق إليها الصداق و المهر سياقا و أساقه، و إن كان دراهم ودنانير؛ لأن أصل الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدراهم و الدنانير وغيرها..."³

¹ معجم مقاييس اللغة ج 3 ، ص 117

² الصحاح : ج 4 ، ص 1500

³ لسان العرب : ج 7 ص 304-305

وقال الزمخشري: " ومن المجاز... هو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث،

وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك على سوجه : على سرده"¹

وجاء في المعجم الوسيط : " سياق الكلام : تتابعه، و أسلوبه الذي يجري عليه"²

ومن خلال تتبعنا لهذه المادة اللغوية وتصرفها في المعاني نخلص إلى أنها تدور على

معنى: **التتابع و التوالي و الاتصال و التسلسل** غير أننا نلمس في كلام الزمخشري

إشارة إلى **الغرض** الذي يساق الكلام لأجله وهذا في قوله : " وهذا الكلام مساقه إلى

كذا" فحرف الغاية "إلى" يرشدنا إلى هذا المعنى اللطيف كما نلمح في المعجم الوسيط

لفتة إلى الطريقة التي يأتي الكلام عليها أو **الأسلوب** الذي يسلكه الكلام.

2-السياق اصطلاحاً:

يجدر الإشارة ابتداءً بأن مصطلح السياق لم يجر له ذكرا في كتب التراث الاصطلاحية

على الرغم من كثرة استعماله في كتب اللغويين و المفسرين و الأصوليين والبلاغيين

وقد يرجع سبب ذلك أن المتقدمين اهتموا بالجانب الاجرائي والعملي فالسياق كان من

أهم الأدوات و أخطرها في تحديد المعاني وتبيان مراد المتكلم وهذه من أغراض السياق

ومن ذلك قول ابن دقيق:" أما السياق و القرائن: فإنها الدالة على مراد المتكلم من

كلامه. وهي المرشدة إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات فاضبط هذه القاعدة فإنها

مفيدة في مواضع لا تحصى"³

¹ أساس البلاغة ص314

² المعجم الوسيط : ص330

³ ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام، مطبعة السنة المحمدية، ج2 ص21

ويقول السرخسي: " فأما الثابت بالعبارة فهو ما كان السياق لأجله ويعلم قبل التأمل أن ظاهر النص متناول له و الثابت بالإشارة ما لم يكن السياق لأجله لكنه يعلم بالتأمل

في معن اللفظ من غير زيادة فيه ولا نقصان وبه تتم البلاغة"¹

وقال في موضع آخر: " القرينة التي تقترن باللفظ من المتكلم، وتكون فرقا فيما بين

النص و الظاهر هي السياق، بمعنى الغرض الذي سيق لأجله الكلام"²

ولابن قديم الجوزية كلاما بديعا يحدد أهم فوائد السياق في كتابه الموسوم ببدايع

الفوائد: " السياق يرشد إلى تبين المجمل و تعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير

المراد وتخصيص العام و تقييد المطلق وتنوع الدلالة وهذا من أعظم القرائن الدالة

على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره، و غلط في مناظرته فانظر إلى قوله

تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ الدخان 49 كيف تجد سياقه يدل على

أنه الذليل الحقير."³

ولقد تتبع الدكتور ردة الله بن ردة المعاني التي ورد فيها مصطلح السياق في التراث

العربي وخلص إلى أن هذا المصطلح تنازعتة معان ثلاثة: "

الأولى: أن السياق هو الغرض: أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام...

الثانية: أن السياق هو الظروف و المواقف الأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو

قيل بشأنها ...

¹ محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: أصول السرخسي، دار المعرفة - بيروت، ج 1 ص 236

² السرخسي: لمصدر نفسه: ج 1 ص 146

³ ابن قديم الجوزية: بدائع الفوائد، ج 4، ص 13

الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي.¹

وإذا كان السياق هذا حاله في الكتب التراثية فإن علوم اللغة الحديثة قد تناولت هذا المصطلح تناولاً مفاهيمياً فحاولت تأصيله وتبيين حده فضلاً عن الوقوف على جانبه الاجرائي الوظيفي.

وقد عرف محمود السعران السياق بقوله: "و السياق هو البيئة اللغوية التي تحيط بالكلمة أو العبارة أو الجملة وتستمد أيضاً من السياق الاجتماعي، وسياق الموقف، وهو المقام الذي يقال فيه الكلام بجميع عناصره من متكلم ومستمع وغير ذلك، من الظروف المحيطة، و المناسبة التي قيل فيها الكلام"²

ويرى فريد عوض حيدر: " أن السياق نوعان لا ينفصلان سياق لغوي وسياق الحال والأول يعتمد على الكلام المنطوق، والثاني يعتمد على الظروف الملازمة للحدث الكلامي"³

ويمكننا من خلال هذين التعريفين القول بأن السياق قسمان: سياق لغوي، وسياق غير لغوي.

¹ د/ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، 1423، ص 50-51

² فوزي عيسى، رانيا عيسى : علم الدلالة النظرية والتطبيقية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، ط1 ، ص 111

³ فريد عوض حيدر: علم الدلالة، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ط2 ، 1999 ، ص 163

2-أنواع السياق:

السياق نوعان:

أ - السياق اللغوي:

أما السياق اللغوي: " فهو النظم اللفظي للكلمة وموضعها في ذلك الكلام بأوسع معاني هذه العبارة فإن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله" ¹

ب - السياق غير اللغوي:

ويطلق السياق غير اللغوي أو ما يسمى بسياق الموقف على كل الظروف والملابسات المحيطة بالكلام ولقد اقترح صاحب كتاب المعنى وظلال المعنى اطلاق مصطلح **المساق** على تلك الظروف والملابسات حيث يقول: " وسأطلق على كل هذه القرائن الخارجة عن التعبيرات اللغوية الحرفية تلك القرائن المحيطة بهذه التعبيرات، والمؤثرة في دلالتها مصطلح (المساق)..."²

ولقد وضع للمساق ثلاثة عناصر وهي : السياق الثقافي، ملابسات الموقف ، مساعدات

الكلام³

¹ ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ترجمة الدكتور كمال بشر،المقاهرة ، مكتبة الشباب ، ، ص57
² محمد محمد يونس علي : المعنى وظلال المعنى ، طبعة مزيدة و منقحة ، دار المدار الإسلامي، ص160
³ ينظر المرجع السابق ، ص161

3- السياق و المعنى:

لا شك في أن للسياق دوراً كبيراً في تحديد معاني الألفاظ بل ثمة من ذهب إلى أن الألفاظ لا معنى لها خارج السياق فالاستعمال هو الذي يكسب الكلمة معانيها ومن ذلك قول آيفور أرمسترونغ: السبب الرئيسي في سوء الفهم هو (خرافة المعنى الخاص) proper meaning superstition ، أي ذلك الاعتقاد الشائع بأن للكلمة معنى ثابتا محددًا مستقلاً عن شروط استعماله، ... وثبات معنى الكلمات ينشأ عن استقرار السياقات التي تضيف عليها معناها.¹

وأما ردة الله فيرى بأن اللفظة المعجمية تكون أكثر تحرراً في تصرفها بالمعاني من اللفظة النصية إذ يقول: "...ذلك أن الكلمات المعجمية تمنح المتكلم حرية في الصياغة، بما هي مفردات معجمية لَمَّا تصبح بعد كلمات نصية فإذا كانت كذلك (أي دخلت النص) تفقد جزءاً من دلالتها المطلقة وهو مفردة خضوعاً للكلمات الأخرى كما أنها تكتسب بضغط من الكلمات الأخرى دلالة إضافية لها ، أو تفرض جزءاً من دلالتها على الكلمات للتوافق معها أو التنبؤ بها أحياناً حين يفرض سياق الجملة كلمة بعينها مطلوبة لكلمة سابقة"²

وما يدعوننا في هذا النص إلى شيء من التحفظ هو استعمال مصطلح " المفردة المعجمية" وكأن في ذلك تلميح بأن لهذه المفردات معان خارج إطار الاستعمال والحق

¹ آيفور أرمسترونغ ريتشاردز : فلسفة البلاغة ، ترجمة : سعيد الغانمي و ناصر حلاوي، أفريقيا الشرق – المغرب، 2002 ، ص20
² ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق ، ص322

ان معاني المفردات في المعجم إنما هي مأخوذة من السياقات المختلفة التي استعملت فيها تلك المفردات فلا يمكن عزل اللفظ عن سياقه " فالكلمة المعزولة تماما هي كلمة غير ذات معنى. وحين نعزل كلمة فإنما نعزلها بافتراض خلفية معيارية وسياق خيالي مجرد، نرى انه قادر على تجسيد المعنى وتمثيله"¹

"ويرى هايمز أن السياق يؤدي دورا مزدوجا "يحصر مجال التأويلات و يدعم التأويل المقصود" و لذلك قال عنه أولمان الحارس الأمين للمعنى"²

ومن ثم فإن الكلمة إنما تتنوع معانيها بتنوع السياقات التي تستعمل فيها وهذا ما يؤكد جيفر إلز فهو: "ويشير إلى أن المعنى السياقي إما أن يكون كامنا potential ، أو حاليا instential أي فعليا فالمعنى السياقي الكامن للمفردة البنائية هو سلسلة المعاني السياقية الممكنة لتلك الوحدة المنظور إليها في تجريد من النص و معناها السياقي الآني هو المعنى الفعلي في مثال معين و يحدد المعنى السياقي الكامن بتراكم المعاني السياقية الآنية..."³

فالسباق يؤدي دورين مختلفين فهو من جانب يوسع من إيهاب اللفظ حتى يستوعب من المعاني على قدر تنقله من سياق إلى آخر و من جانب آخر فإنه يرشح للفظ معنى واحداً في سياق معين ويقصي بقية المعاني ويقول فندريس في هذا السياق: "والذي يعين قيمة الكلمة إنما هو السياق إذ أن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو

¹ أيفور أرمسترونغ: المرجع السابق ، ص

² ردة الله بن ردة الله : المرجع السابق ،ص 206

³ محمد محمد يونس : المعنى وظلال المعنى ، ص 121

يحدد معناها تحديدا مؤقتا و السياق هو الذي يحدد قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتعددة التي بوسعها أن تدل عليها ، و السياق هو أيضا الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها و هو الذي يخلق لها قيمة حضورية"¹

المطلب الثاني: السياق القرآني:

1- مفهوم السياق القرآني

إن السياق القرآني يختلف عن غيره من السياقات من حيث تعلقه بكلام الله عز وجل وتوسله من أجل فهم معانيه والتقرب من مراد الله عز وجل كما أنه أداة لتفسير القرآن بالقرآن فتفسر الآية بما يجاورها من الآيات يجعل فهمها أقرب من مراد الله عز وجل وفي ذلك يقول ابن تيمية: " فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن تبين له المراد ، وعرف الهدى و الرسالة وعرف السداد، من الانحراف والاعوجاج وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين"²

يشير ابن تيمية في هذه الكلمات إلى أن النظر في الآيات الكريمة لا يقوم على النظر في عبارتها وألفاظها فقط بل يجب على الناظر استحضر جملة من الأدوات المعينة

¹ جوزيف فنديريس : اللغة ، تج ، عبد الحميد الدواخلي – محمد القصاص ، نونجلو المصرية ، دط 1950 ، ص 231
² ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 15 ، ص 94

على فهم الآية ومنه ضرورة النظر إلى ما سبقها من آيات وما لحقها أي ان الآية ينظر إليها من خلال سياقها العام الذي وردت فيه وإلا وقع المفسر في الغلط. و يؤكد ابن الجزي ذلك في قوله: "...وأن يشهد بصحة القول سياق الكلام ، و يدل عليه ما قبله أو ما بعده"¹

وقال محمد رشيد رضا : "... وأن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله و الأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في موضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ " الهداية " -سيأتي تفسيره في الفاتحة - وعيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته"²

إن المتدبر في هذه الأقوال الدقيقة ليرشد إلى أن آيات القرآن الكريم يشد بعضها بعضاً ولا يمكن النظر في الآية الكريمة إلا في ضوء سابقتها كما تلقي هي بدورها بضلالها على التي تليها وكل ذلك يجب أن لا يخرج عن قصد القرآن الكريم

وهذا يذكرنا بتقسيم الأسلوبيين للسياق إذ يطلقون " لفظ السياق الأكبر le macrocontexte مقابلاً لفظ السياق الأصغر le micro contexte الذي يدل على

¹ ابن جزي الكلبي : التسهيل لعلوم التنزيل ، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، لبنان بيروت ط 1 ، 1995 ، ص13
² محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار) ، دار الفكر العربي ، مصر القاهرة ، ط 2 ، 1997/1417 ، ج 1 ، ص 22

الجوار المباشر للفظ قبله وبعده، وأما السياق الأكبر فهو الذي يتنزل فيه اللفظ بعد الجوار...¹

كما نجد في كلام محمد رشيد رضا ما يكاد يشبه السياق الكامن و السياق الحالي عند (جيفري إلز) ، وإن كان هذا الأخير قد جعل مدونته مفتوحة، فإن رشيد رضا يستحسن جعل هذا العملية الإجرائية في القرآن الكريم فنحصى ورود الكلمة الواحدة في القرآن متتبعين مختلف سياقاتها لنحدد معانيها ثم ننتقي منها المعنى الأنسب للآية المستهدفة بالتحليل مع استحضار ضرورة موافقة هذا المعنى لما سبقه من القول ، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته فهو البوصلة القرآنية التي تسترشد بها المعاني.

2-أنواع السياق القرآني:

يقسم الدكتور عبد الحكيم عبد الله القاسم السياق القرآني على قسمين:

سياق السباق: الكلام الذي يبين معنى ما بعده

سياق اللحاق: الكلام الذي يبين معنى ما قبله²

فيرى صاحب الرسالة أنه لا يمكن البت بفهم اللفظ أو الجملة في الآية إلا بالنظر إلى

هذين السياقين " فيفهم كلام الله -عز وجل- من السياق بمراعاة أمرين:

- النظر إلى ما قبل النص المفسر: سواء كان أكثر من آية أو أقل من جملة

- وكذلك بالنظر إلى ما بعد النص المفسر...³

¹ عبد السلام المسدي: الأسلوب و الأسلوبية ، طبعة منقحة ومشفوعة، الدر العربية للكتاب ، ط 3 ، ص175
² عبد الحكيم عبد الله القاسم: رسالة السياق القرآني و أثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، دار التدمرية ، ط1 ، 1433هـ / 2012 م ص-ص 94 ، 95
³ المرجع السابق

وأما محمد عبد الله دراز فقد أبدع حقا في توصيف أهمية السياق في فهم النص القرآني الذي يعد نصا واحدا من أول آية إلى آخرها حيث يقول : " وأما المدينة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبناتها الأولى فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكورة رسائله يرتب أجزاءه ترتيب الواثق المطمئن إلى أن سيكون له منها ديوان تام جامع (وأما) القصور، والغرفات، و اللبنات فهي أجزاء هذا الديوان: من السور والنجوم و الآيات"¹

فمن الغلط ان ننظر إلى اللبنات كأشتات متفرقات فلا نستحضر تشابكها وتراسها في بناء الغرفات كما نحيد عن جادة الصواب إن غفلنا عن تداخل هذه الغرف وتجاورها بطريقة محكمة ونظام دقيق جعل منها قصرا مشيدا فكذا القرآن الكريم سورا ومقاطعا وآيات فمن الغلط النظر إليها كعبارات متفرقات مركومة كيفما اتفق بل يحكمها نظام دقيق هو مفتاح فهمها وتفسيرها ومتى غفل المفسر عنه وقع في الزيغ والغلط.

ويمكننا النظر إلى سياق القرآن الكريم على أنه سياقات متداخلة ولقد قسمها صاحب كتاب (دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم) إلى أربع سياقات حيث يقول: "السياق قد يضاف إلى مجموعة من الآيات التي تدور حول غرض أساسي واحد، كما أنه قد يقتصر على آية واحدة ويضاف إليها، وقد يكون له امتداد في السورة كلها، بعد أن يمتد إلى ما يسبقه و يلحقه، وقد يطلق على القرآن بأجمعه، ويضاف إليه، بمعنى

¹ محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم الكويت، د ط، ص149

أن هناك: سياق آية، وسياق النص، و سياق السورة ، و السياق القرآني، فهذه دوائر متداخلة متكافلة حول إيضاح المعنى"¹

وسنحاول في هذه السنحة أن نشير إلى كل نوع بإيجاز شديد:

2-أ- سياق الآية:

يتم التركيز في هذا النوع من السياق على الآية المستهدفة بالتحليل و التفسير دون النظر إلى ما سبقها أو لحقها من آيات ومحاولة اقتناص المعنى المراد للفظه من مجموع معانيها المختلفة وفي ذلك يقول: " يفهم كلام الله - عز وجل- من السياق بمراعاة أمرين :

- النظر إلى ما قبل النص المفسر: سواء كان أكثر من آية أو أقل من جملة
- و كذلك بالنظر إلى ما بعد النص المفسر : سواء كان أكثر من آية أو أقل من جملة"²

2-ب- سياق المقطع:

تتشكل السورة القرآنية من نصوص ومقاطع من الآيات تتلاحم تلاحما كلياً لتشكّل لنا " وحدة السورة " فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب"³

¹ عبد الوهاب رشيد صالح أبو صافية : دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن ، دار عمار للنشر و التوزيع ، 2012 ، ص88
² د/ عبد الحكيم عبد الله القاسم : رسالة السياق القرآني و أثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، دار التدمرية ، ط1 ، 2012/1433 ، ص 95
³ النبأ العظيم ، ص155

فاختلاف المقاطع في السورة الواحدة يدل على اختلاف الموضوعات ولكن رغم ذلك نجد أنها تمد بسبب إلى الاتجاه العام للسورة الواحدة و إن طالت ومن ذلك قول سيد قطب في سورة البقرة: " هذه السورة تضم عدة موضوعات، و لكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يرتبط الخطان الرئيسان فيه ترابطا شديدا ،،، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسيين، كما سيجيء في استعراضها التفصيلي"¹

فيجب أن نقرأ الآية الكريمة في القطعة القرآنية على ضوء الموضوع الذي تناولته إذ تنتبع السلك الناظم لآيات تلك القطعة وأكثر ما يظهر أثر هذا السياق في القصص و التشريعات.

2-ج -سياق السورة:

قال صاحب النبأ العظيم في فصل _ (القرآن في سورة سورة منه) : " فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلم إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى و الظروف متفاوتة، لتري من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب و الإعجاز"²

إن السورة إن طالت أو قصرت لها خيط ناظم يجمع آياتها على نسق واحد وقد تتنوع موضوعاتها وتختلف أحوالها غير أنها أبدا لا تخرج عن إطارها العام بل قد

¹ سيد قطب إبراهيم حنين الشاربي : في ظلال القرآن ، دار الشروق -بيروت- لبنان ، ط 17 ، 1412هـ ، ج 1 ، ص 18
² النبأ العظيم : ص-ص 143-144

تجد آيات السورة الواحدة قد أنزلت في فترات مختلفة وفي أماكن متباينة وفي أحوال

شتى غير أنك لا تجد ذلك التباين والاختلاف بين الآيات

" وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبته في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه

السورة قد نزل في نجم واحد أم في نجوم شتى، وسوف تحسب أن السبع الطوال من

سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها

قد نزلت نجوما"¹

وهناك فصل في علوم القرآن في مناسبة فواتح السور وخواتمها إذ يقول الزركشي:

ومن أسرارها مناسبة فواتح السور وخواتمها و تأمل سورة القصص و بداءتها بقصة

مبدأ أمر موسى ونصرته، وقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

لِلْمُجْرِمِينَ ﴿٧﴾ القصص: 17

وخروجه من وطنه ونصرته و إسعافه بالمكالمة، و ختمها بأمر النبي صلى الله عليه

وسلم - بألا يكون ظهيرا للكافرين، و تسليته بخروجه من مكة و الوعد بعوده إليها بقوله:

﴿ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى

وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ القصص: 85. "²

¹ الممرجع السابق : ص145

² الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج 1 ، ص134

2-د السياق العام للقرآن الكريم:

لقد ذهب صاحب كتاب (السياق القرآني و آثاره في التفسير) إلى أن السياق العام للقرآن الكريم يقوم على ثلاثة أركان : المقاصد الأساسية، المعاني الكلية، الأساليب المطردة

- المقاصد الأساسية:

أنزل القرآن الكريم لمقاصد سامية وأغراض جليلة والجاهل بهذه المقاصد قد يؤدي إلى الزيغ والضلال عن القراءة الراشدة لكتاب الله عز وجل وجاء في محاسن التأويل: "...إن القرآن و السنة، لما كانا عربيين، لم يكن لينظر فيهما إلا عربي. كما أن من لم يعرف مقاصدهما، لم يحل له أن يتكلم فيهما. إذ لا يصح له نظر حتى يكون عالما بهما، فإنه إذا كان كذلك لم يختلف عليه شيء في الشريعة"¹

ولقد جمع الطاهر بن عاشور هذه المقاصد في ثمانية نقاط أساسية : " إصلاح الاعتقاد ، تهذيب الأخلاق، التشريع ، سياسة الأمة، القصص و أخبار الأمم، التعليم بما يناسب حالة العصر ، المواعظ ، الإعجاز"²

- المعاني القرآنية المطردة:

إن للقرآن الكريم معاني مطردة في مجمل الكتاب وبهذه المعاني تفسر آياته ولا يجوز تجاوزها لأنها من عادة التعبير القرآني وكما أنها لا تخضع لسلطان الاحتمال النحوي

¹ محمد جمال الدين الحلاق القاسمي: محاسن التأويل، محقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1، 1418هـ، ج 1، ص 104

² ينظر : محمد الطاهر بن عاشور : تحرير المعنى السديد وتبوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير و التنوير) ، الدار التونسية للنشر - تونس ، 1984 ، ج 1 ، ص - ص 40 - 41

أو عادة العرب في تعبيراتهم فمعاني القرآن أسمى كما ألفاظه في ذلك يقول ابن قيم الجوزية : " للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفه، والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم. فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها و أفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي تليق به بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الاعرابي فتدبر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة كثير من أقوال المفسرين وزيفها وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه"¹

ج الأساليب القرآنية المطردة:

قال الجاحظ في "البيان" : " وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل الصلاة و الزكاة، الجوع والخوف، الجنة و النار، الرغبة والرغبة، المهاجرين والأنصار، الجن و الإنس النفع و الضر، و السماء و الأرض."²

" وذكر صاحب "الكشاف" و فخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة."³

¹ ابن قيم الجوزية : بدائع الفوائد ، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ، ج 3 ، ص 27

² الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، ج 1 ، ص 124

³ المرجع السابق : ج 1 ، ص 125

وخلص ما توصلنا إليه من خلال هذه الدراسة المستعجلة للسياق عموماً ثم للسياق القرآني هو أن اللفظة لا يمكن معرفة معناها إلا من خلال السياق الذي جاءت فيه فالسياق هو منبت المعاني.

وزيادة على ذلك فإن السياق يسلط آلياته على اللفظ فيوسع معناه ويكشف دلالاته فكما استعمل اللفظ في سياقات مختلفة كلما اكتسب معاني مختلفة حفظت في ذاكرة اللفظ هذا من جانب ومن جانب آخر فإن السياق يمارس دور الجرمكي على ذاكرة اللفظ فيرشح من معانيها ما يتناسب مع سياق دون غيره.

وأما في السياق القرآني فيجدر بنا ابتداء استحضار عظمة كتاب الله عز وجل ثم التقيد بطبيعة نظمه البديع الذي لا يداخله تناقض في معانيه ولا تنافر في ألفاظه " فقد نسج نظمه نسجاً بالغاً منتهى ما تسمح به اللغة العربية من الدقائق و اللطائف لفظاً و معنى بما يفى بأقصى ما يراد بلاغة إلى المرسل إليهم".¹

ومن ثم فإن اللفظة القرآنية تأخذ موقعها من الآية ولا تقبل عنه حوالاً كما لا يمكن لغيرها أن يسد مسدها ، وإن الآية في المقطع تستمد دلالتها من سياقه كما المقطع يتعلق بالخيط الناظم لموضوع السورة بمجملها وأما السورة من القرآن فلا تخرج عن نطاق المعاني الكلية للقرآن ومقاصده السامية ومنطقه الذي يتجاوز ضيق أفق الإنسانية يقول مالك بن نبي: " إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض كل شيء لقانون

¹ المرجع نفسه : ج 1 ، ص 93

المكان و الزمان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للإنسانية.¹

المطلب الثالث: أثر السياق القرآني في التضمين:

1- توجيه السياق القرآني لتصرف التضمين

إن الكلمة لا معنى لها إلا إذا سلكتها في نظم ، وأدرجناها في عبارة ، كما أن العبارة لا يتشكل معناها إلا من الكلمات المدرجة ضمنها " فالجمله على سبيل المثال هي وحدة كلية ونحن نفهم معنى الكلمة داخل الجملة ، والجمله بدورها يعتمد معناها الكلي على معنى كلماتها المفردة... " ² ،

ومن ثم فإن معنى كل كلمة لا يتحقق إلا بمجاورتها لغيرها و " إن كل جزء من السلسلة الكلامية يجذب إليه بطريقة أو بأخرى الجزء الذي يليه ، و الذي لا يمكن أن يختار إلا من بين عدد معين من الكلمات " ³ وهذا التجاذب و الاستدعاء قد يكون على مقتضى العلاقات المعجمية الطبيعية فتحقق العبارة المعنى العادي وقد تنتهك قاعدة الاختيار هذا المستوى فتنزاح العبارة عن المعنى الحقيقي.

وفي ذلك يقول ردة الله: " وربما يتجلى هذا الأمر حين نتناول علاقات المجاز والتضمين باعتبارهما خروجاً عن المطلوبات المنطقية (الطبيعية) للكلمات، وهي تلك النابعة من

¹ مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم : محمد عبد الله الدراز ، محمود محمد شاكر، دار الوعي -الجزائر ، ط1 ، 1434هـ/2013 م ، ص196

² د / عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر ، رؤية للنشر و التوزيع -القاهرة، ط1 ، 2007 ، ص100

³ د/ محمد الحناش : البنيوية في اللسانيات ، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ، ط1 : 1401 هـ ، ص340

دلالة الكلمة المعجمية و التي نعبر عنها بالافتضاء، حين نقول إن (أكل) مثلا يقتضي

مأكولا، فإن جاء ما بعده على غير المقتضى، بدأ القول بالمجاز أو التضمين¹

فمنشأ التضمين إذاً هو من ورود اللفظ على غير مقتضاه فلو أخذنا الفعل السابق

فسنجده في بعض آي القرآن يتصرف تصرفا مخصوصا ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنؤُا

الَّتِي مَآؤُالهُمَّ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْؤالَهُمِ إِلَى أَمْؤالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

النساء: 2

فالملاحظ هو أن الفعل أكل في هذه الآية الكريمة قد تجاوز مفعوله إلى مفعول ثان

عن طريق حرف الجر (إلى)، وهذا ما يخلق نوعا من القلق و الاضطراب الذي لا يسكن

إلا بتضمين الفعل (أكل) معنى فعل يتعدى بحرف الجر (إلى) ومثل هذا نجده في كتب

التفسير.

وفي هذه الآية يقول الزمخشري: " وحققتها : ولا تضموها إليها في الانفاق، حتى لا

تفرقوا بين أموالكم و أموالهم"²

وفيهما يقول ابن عطية: " الآية نص (النهي عن) قصد مال اليتيم بالأكل و التمول

على جميع وجوهه"³

¹ ردة الله : المرجع السابق ، ص 323

² الزمخشري: الكشاف ، ج 1 ، ص 465

³ أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عيد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط 1 ، 1422هـ ، ج 2 ، ص 5

وأما في تفسير القرطبي نجد قوله: "وقالت طائفة من المتأخرين: إن (إلى) بمعنى مع... وليس بجيد. وقال الحذاق: (إلى) على بابها وهي تتضمن الإضافة، أي تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل."¹

جاء في الدر المصون: "وقوله (إلى أموالكم) فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أن (إلى) بمعنى (مع) وهذا رأي الكوفيين. والثاني: أنها على بابها، وهي ومجروها متعلقة بمحذوف على أنها حال، أي: مضمومة أو مضافة إلى أموالكم. و الثالث: أن يضمن (تأكلوا) معنى (تضموا) كأنه قال: ولا تضموها إلى أموالكم آكلين."²

ومن خلال هذه النصوص نخلص إلى أن الفعل (أكل) في الآية الكريمة قد تضمن معنى الضم و الإضافة و القصد وثمة رأي آخر يرى ان (إلى) جاءت بمعنى (مع) وهذا الرأي قد ضعفه القرطبي كما يضعفه السياق القرآني وسياق السورة إذ أنه يمكن للولي أن يأكل من مال اليتيم إن كان فقيرا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَتْلُواْ الْيَتْمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُّشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ ءَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ءَمْوَالَهُمْ فَأَشْهُدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ النساء: 6

¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2: 1384هـ/1964، ج5، ص10
² أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق، ج3، ص557 وينظر كذلك: روح المعاني، ج2 ص399، و التحرير و التنوير: ج4، ص221

فالمحرم إذاً هو أن يضيف الولي مال اليتيم إلى ماله ويضمه إليه ويقصد الاستلاء عليه إذ يختلط المالان حتى لا يمكن فصلهما ولعلنا نستأنس في ذلك بقول الزمخشري السابق إذ جعل المنهي عنه هو اختلاط المال حتى لا يمكن التفريق بين مال اليتيم ومال الولي.

2- نماذج تطبيقية من القرآن الكريم على التضمين في الأفعال:

قد حاولنا في المبحث ان نتلمس بعض مواضع التضمين في كتب التفسير، موضحين ما كان للسياق من دور في تجليته المعاني وتصرف الأفعال فيها، ولقد اقتصرنا على العبارات التي يبدو الاضطراب فيها جليا قبل القول بالتضمين ومن خلال ذلك نقف على دور التضمين وجماليته في العبارة القرآنية ، كما سنحاول أن نبين رجحان القول بالتضمين على القول بالتناوب أو الحذف والايصال

الفعل أتى:

جاء في لسان العرب: " أتى الإتيان : المجيء . أتيته أتيا و أتيا وأتيا وأتينا و مأتاة : جئته"¹

يتضمن الفعل أتى معنى المجيء غير أننا نجد له في القرآن الكريم معاني أخرى من غير هذا المعنى واننا نجده لازما ومتعديا بنفسه تارة و بالحرف تارة أخر و سنقف الآن مع بعض المواضع التي جاء فيها هذا الفعل على التضمين في القرآن الكريم.

¹ ابن منظور : لسان العرب ، الفعل " أتى " ، ج 1 ، ص 21

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ

كَرْهُونَ ﴿٥٤﴾ التوبة: 54

تعرض لنا هذه الآية مشهدا من مشاهد المنافقين فهم يأتون المساجد ويحضرون الصلاة مراغمين مرئين مكرهين لذا فهم يأتون الصلاة أي يؤدونها ويحضرونها بالفعل (أتى) يكشف لنا حركة وتوجه هؤلاء إلى أماكن الصلاة ويتضمن معنى الأداء والحضور فهم يأتونها مظهرا بلا حقيقة ولا يقيمونها إقامة واستقامة¹

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ

الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ الأعراف: 80

جاء في الكشاف للزمخشري في تفسير هذه الآية: "أتأتون الفاحشة أتفعلون السيئة المتמادية في القبح ما سبقكم بها ما عملها قبلكم..."²

¹ سيد قطب: في ظلال القرن، درا الشروق - بيروت - القاهرة، ط 17، 1412 هـ، ج 3، ص 1665
² الزمخشري: الكشاف، ج 2 ص 125

وذهب إلى ذلك كل من الألوسي¹ ، و النسفي² ، والخازن³ و محمد رشيد رضا⁴

فالفعل " تأتون " في الآية الكريمة يتضمن معنى الفعل و الممارسة و الآية التي تلي

هذه الآية تبين حقيقة الفاحشة التي ابتدعها آل لوط .

ويقول تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

مُتَّعِفُونَ ﴿٨١﴾ الأعراف: 81

لا يمكن للفعل "يأتون" في هذه الآية أن يكون بمعنى الفعل و الممارسة لأن كلمة

رجال بعدها لا يستقيم اقترانها بهذا المعنى فرأى أهل التفسير أن الفعل في هذا السياق

قد دل على الشهوة التي كانت قصد ممارسي تلك الفاحشة وفي ذلك يقول صاحب

تفسير بحر العلوم : " تجامعون الرجال من دون النساء ويعني: إن إتيان الرجال أشهى

إليكم من إتيان النساء.."⁵

وقال صاحب الهداية إلى بلوغ النهاية : " وقوله (شهوة) : أي تشتهون ذلك شهوة "⁶

وجاء في تفسير القرطبي : " واختار النحاس ومكي و غيرهما (شهوة) نصب على

المصدر ، أي تشتهونهم شهوة . و يجوز أن يكون مصدرا في موضع حال"⁷

¹ الألوسي : روح المعاني ، ج 4 / ص 406

² أبو البركات النسفي : " مدارك التنزيل في حقائق التأويل (تفسير النسفي) ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، دار الكلم الطيب -بيروت- ، ط 1 ، 1419هـ / 1998م ، ج 1 ، ص 583

³ علاء بن محمد المعروف بالخازن : لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن) ، تحقيق محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية - بيروت- ط 1 ، 1415 ، ج 2 ص 225

⁴ محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، ج 8 ، ص 453

⁵ أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي : بحر العلوم ، ج 1 ، ص 530

⁶ أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه ، تحقيق مجموعة رسائل جامعية بإشراف الشاهد البوشيخي ، جامعة الشارقة ، ط 1 ، 1429هـ / 2008م ، ج 4 ، ص 2437

⁷ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، ج 7 ، ص 246

وفي تفسير الألويسي تأتون بمعنى تشتهون¹

والذي نستشفه من خلال أقوال المفسرين هو أن الفعل (تأتون) في هذه الآية الكريمة قد تضمن معنى الفعل (تشتهون) ومن ثم قد حقق هذا الانسجام في الآية الكريمة كما أن هذا المعنى يتسق مع المعنى العام لمقطع الآيات التي تصف لنا حالة لوط مع قومه الذين انتكست فطرتهم فباتوا أضل من الأنعام إذ يجدون في الرجال شهوة دون النساء. و مما لاحظناه ونحن ننتبع تصرف هتين الصيغتين -تأتون و يأتون- في القرآن الكريم هو تعلقها بالمنكر و الفاحشة ومن ذلك هذه الآيات:

قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ^ط

أَفَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ الأنبياء: 3

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ الشعراء: 165

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ النمل: 54

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ العنكبوت: 28

¹ الألويسي : روح المعاني ، ج 4 ، ص 408

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَبَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ

الْمُنْكَرِ ﴿٢٩﴾ العنكبوت: 29

وقد يأتي القعل آتى في القرآن الكريم متعديا بحرف الاستعلاء (على) ومن ذلك قوله

تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿حُجَّتْنَا أَتَيْتَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ الأنعام: 83

يتعلق الحرف (على) في هذه الآية الكريمة بالفعل (أتى) وليس من الحروف التي

يتعدى بها هذا الفعل، فيستوقفنا هذا التركيب ويستفزنا فما علاقة الفعل بمعنى الاستعلاء

الذي نجده في الحرف على؟

بالعودة إلى الآيات السابقة و بالاعتماد على سياق المقطع الذي جاءت فيه هذه الآية

يتضح لنا بأن هذه الآية جاءت ختاماً و خلاصة لرحلة من المجادلة و المحاججة التي

كانت بين إبراهيم و والده ثم بينه و قومه و قبل ذلك يصور القرآن الكريم تلك الرحلة الشاقة

التي قطعها إبراهيم في البحث عن الله وفي ذلك يقول السيد: " ...كذلك سار إبراهيم -

عليه السلام- وفي هذا الطريق وجد الله.. ووجهه في إدراكه و وعيه، بعد أن كان يجده

فحسب في فطرته وضميره.. ووجد حقيقة الألوهية في الوعي و الإدراك مطابقة لما

استكن منها في الفطرة و الضمير.¹

¹ السيد قطب : في ظلال القرآن ، ج 2، ص 1193

ولنستعرض الآن بعض أقوال المفسرين في هذه الآية الكريمة:

يقول ابن عطية في تفسيره: "...و يجوز أن تتعلق (على) ب (آتيانها) على المعنى إذ

أظهرناها لإبراهيم على قومه ونحو هذا"¹

وجاء في البحر المديد: "واتيانه إياها : إرشاده و تعليمة إياها"²

وقال الألويسي: " وقيل يصح تعلقه -على- بآياتنا لتضمنه معنى الغلبة."³

وجاء في المنار: " أعطيناها إبراهيم حجة على قومه مستعلية عليهم."⁴

فهذه التفسير تلوح لمعان في الآية غير مصرح بها ولكن يمكن استنباطها بالوقوف

على تعدي الفعل اتى بغير حرفه المعتاد وأهم المعاني التي قال المفسرون بها هي :

علمناها ، ألهمناها ، أعطيناها، و أظهرناها و ذهب البعض إلى معنى الغلبة و

الاستعلاء.

وما أراه هو أن هذه الآية الكريمة في هذا السياق القرآني تصور مشهد غلبة إبراهيم على

قومه واستعلائه وسيادته عليهم بالحجة التي منحها وألهمها، فهذا عطاء الله عز وجل

فإن إبراهيم -عليه السلام - لما واجههم بالحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، دحضت

و سقطت حجة الكفار و علت حجته فارتفع إبراهيم على قومه منزلة وحجة وعقيدة.

¹ ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت - ، ط1 ، 1422هـ ، ج2 ، ص 316

² أبو العباس أحمد بن عجيبة : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، تحقي أحمد عبد الله القرشي، ط ، 1419هـ ، ج2 ، ص140

³ الألويسي : روح المعاني ، ج4 ، ص197

⁴ محمد رشيد رضا : المنار ، ج7 ، ص487

وبهذا يرفع الله من يشاء درجات ، وفق حكمته وعلمه ، ولو جاء الفعل متعديا بنفسه أو

مقترنا بحرف الجر "إلى" لما وجدنا رائحة الغلبة و العلو و الرفعة في سياق الآية.

الفعل تتبع:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ

وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ

لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا

كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ المائدة: 48

تستهل هذه السورة الكريمة بالأمر بالوفاء بالعقود، ثم تشرع في تبيان الحلال و الحرام

من ذبائح و مطاعم و مشارب وفي بيان الكثير من الأحكام الشرعية وعلاقة الأمة

المؤمنة بغيرها من الأمم وبيان ثقل مسؤولية هذه الأمة تجاهها البشرية بكتابها المهيم

على كل الكتب السماوية قبلها، والحكم بما أنزل الله والحذر من الفتنة عن بعض ما

أنزل الله تأثرا ببعض المشاعر الشخصية.

هذه هي الأجواء التي نجدها في هذه السورة الكريمة تلقي بظلالها على الآية السابقة

بل قد لا نجافي الصواب لو قلنا أنها تختصر مجمل ما جاء في السورة ، ولا يمكن

قراءة هذه الآية دون أن يلفت انتباهنا الفعل (تتبع) المتعدي هنا بحرف الجر (عن) وهو
في الأصل يتعدى بنفسه

ولنشرع الآن في سرد تفاسير هذه الآية الكريمة:

يقول الزمخشري: " ضُمَّنَّ (ولا تتبع) معنى (ولا تتحرف) فلذلك عدي بـ(عن) كأنه قيل:
ولا تتحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم لكل جعلنا منكم أيها الناس شرعة ...
فاستبقوا الخيرات فابتدروها وتسبقوا نحوها إلى الله مرجعكم.."¹

وجاء في التحرير و التنوير: " ولتضمن فعل استبقوا بمعنى خذوا أو ابتدروا ، عدي
الفعل إلى الخيرات بنفسه وحقه أن يعدي بـ(إلى)، كقوله سابقوا إلى مغفرة من ربكم"²
قال رشيد رضا: " و لا تتبع ما يهون، و هو الحكم بما يسهل عليهم و يخف احتمالاه،
مائلا عما جاءك من الحق..."³

وجاء في اعراب القرآن وبيانه: " وقيل تضمن (تتبع)، معنى (تتحرف) أو (تترجح) فيتعلق
الجار و المجرور به، ... و استبقوا: فعل و فاعل ، والخيرات مفعول به، أو منصوب
بنزع الخافض، ولعله أولى، لأن الأصل في (استبق) أن يعدي الفعل بـ(إلى) إلا إذا
ضمنت (استبق) معنى (ابتدر) ، فيتعدى بنفسه ."⁴

وجاء في الموسوعة القرآنية: " ولا تتبع ولا تتحرف فلذلك عدي بالحرف (عن)"⁵

¹ الزمخشري : الكشاف ، ج 1 ، ص 640

² الطاهر بن عاشور : التحرير و التنوير ، ج 6 ، ص 225

³ رشيد رضا : المنار ، ج 6 ، ص 341

⁴ محي الدين بن أحمد مصطفى درويش: إعراب القرآن و بيانه ، دار الارشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية،

ط 4 ، 1415 هـ ، ج 2 ، ص 494 ، 495

⁵ إبراهيم بن إسماعيل الأبياري : الموسوعة القرآنية ، مؤسسة سجل العرب ، ط 1405 ، ج 9 ، ص 386

نخلص من خلال أقوال المفسرين إلى أن الفعل (تتبع) في سياق الآية السابقة قد تضمن عدة معاني أهمها : تتحرف ، تميل ، تتزحزح، والقرينة في ذلك متمثلة في التعدية فالفعل (تتبع) يتعدى بنفسه وجاء في الآية متعدب (عن) فتلمس المفسرون من الأفعال ما ينسجم مع السياق فيرتبط بالفعل دلاليا و بالحرف تركيبيا فحرف الجر عن وبمساعدة السياق العام تمكن من أن يفجر معين المعاني الكامنة في الفعل تتبع.

وما بدا لي هو أن الفعل قد تضمن شيئا من هذه المعاني كما قد يتضمن معنى الغفلة فاتبع الهوى قد يجعل الفرد غافلا عن الحق ، ولكن الأقرب وما أراه صائبا هو معنى الإضلال والذي هو انحراف وميل وتزحزح وغفلة ويعضد هذا قوله تعالى وهو يوجه

الخطاب نفسه لداوود عليه السلام : **﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**

فَأَحْكُوبَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ

اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾﴾ ص : 26

أما الفعل (استبقوا) فمن المعاني التي ذكرها له المفسرون : ابتدروا ، خذوا والقرينة في كل ذلك هي أن فعل الاستباق يتعدى بحرف الجر (إلى) وجاء في الآية متعديا بنفسه.

ومجمل القول هو أن هذه الآية الكريمة قد لخصت مضمون السورة والتي كانت تدور في مجملها حول ضوابط الحياة كما يوظرها كتاب الله عز وجل والتي ترتسم في هذه

الصورة بألوان ثلاثة : الابتعاد عن اتباع الهوى ، اتباع الحق الذي أنزله الحق ثم مبادرة الخيرات فالعبارتان التضمينيتان قد لخصتا ما يجب اتبعه وما يجب اجتنابه.

و حينما نتتبع السياق القرآني لبعض الألفاظ أو الأفعال نجدها تتصرف تصرفا مطردا ومن ذلك (يجب) في القرآن الكريم فهو يقترن بالله عز وجل في كل سياقاته فقد جاء هذا الفعل على هذه الصيغة في القرآن الكريم في تسعة و ثلاثين موضعا وكان فاعله في هذه المواضع هو الله عزو جل أما استحبوا و يستحبون فقد اقترن بفئة من الناس يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ونجد هذه الصيغ في أربعة مواضع من القرآن الكريم وهي : (سورة التوبة 23 الآية ، سورة النحل الآية 107 ، سورة إبراهيم الآية 3 ،سورة فصلت الآية17) وفي كلها ترتبط بحرف الجر (على).

الآية الأولى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِن

أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

التوبة: 23

جاء في تفسير الطبري: " قال أبو جعفر: لا تتخذوا آباءكم و إخوانكم بطانة و أصدقاء

تفشون إليهم أسراركم، و تطلعونهم على عورة الإسلام و أهله، و تؤثرون المكث بين

أظهرهم على الهجرة إلى دار السلام... (وإن استحبوا الكفر على الإيمان) يقول: إن
اختاروا الكفر بالله على التصديق به..¹

وجاء في روح البيان "وتعدى استحب ب(على) لتضمنه معنى اختار"²

ويقول الألوسي : " إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان و أصروا عليه لا

يرجى معه إقلاع أصلا ، و لتضمن استحب ما ذكر تعدى بعلى"³

وذهب ابن عطية في تفسيره إلى أن الفعل استحبوا قد تضمن معنى فضلوا⁴

و الملاحظ هو أن معظم التفسيرات قد رأت بتضمين الفعل استحب معنى اختار⁵

ولكنه اختيار صعب وشاق كيف لا و الأمر يتعلق بأقرب الناس إليك و يقول الرازي

في هذه الآية : " وحصول المقاطعة التامة بين الرجل و أبيه و أخيه كالمتعذر

الممتع ، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك البراءة التي أمر الله بها كالشاق الممتع

المتعذر ."⁶

ولذلك جاء الفعل استحب في هذه الآية الكريمة متضمنا لمعنى الفعل اختار و أثر

وفضل وكل هذا باصرار و إقرار و لعل الألوسي قد تنبه إلى ذلك حينما لم يصرح

¹ الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن ، ج 14 ، ص 175

² إسماعيل حقي بن مصطفى الإستنبولي : روح البيان ، دار الفكر - بيروت- ج 3 ، ص 403

³ الألوسي : روح المعاني ، ج 5 ، ص 264

⁴ ابن عطية : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

⁵ ينظر : ابن كثير : ج 4 ، ص 121 ، عبد الله بن عباس - رضي الله عنه- : تنوير المقابيس في تفسير ابن عباس

، جمعه : مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي ، دار الكتب العلمية - لبنان- : ج 1 ، ص 155 ، جلال الدين أحمد

المحلي ، و جلال الدين السيوطي : تفسير الجلالين ج 1 ، ص 243 ، أبو المظفر منصور بن محمد السمعاني :

تفسير القرآن ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن غنيم ، دار الوطن الرياض - السعودية - ، ط الأولى :

1418 هـ / 1997 : ج 2 ، ص 297

⁶ الرازي : مفاتيح الغيب ، ج 16 ، ص 17

بالفعل المتضمن فقال (لتضمن استحباب ما ذكر تعدى بعلى) وما ذكر هو الاختيار والإصرار .

ولقد جاءت هذه الآية في سورة براءة والتي يرسم سياقها العام للمؤمنين الطريقة الناجعة والحاسمة في التعامل مع المشركين، ويتضمن مقطعها الأول الذي تنتمي الآية إليه " إنهاء العهود التي كانت بين المسلمين و المشركين حتى ذلك الحين، سواء كان الإنهاء بعد أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة أو الناكثين لعهودهم...فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هي إنهاء العهود مع المشركين و إنهاء مبدأ التعاقد أصلا مع المشركين بعد ذلك بالبراءة المطلقة من المشركين"¹

وخاصة من الذين يطلب حبهم من الآباء و الاخوة و أهل العشيرة فالتضمين هنا جاء كمنبه أسلوبى لأمر جلل هو أن الرابطة الحقيقية هي الإيمان ومن أحبوا و آثروا واختاروا وفضلوا علاقة أخرى عليه فهم الظالمون .

الآية الثانية:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ النحل: 107

سورة النحل تستفز العقل من أول آية ، تختصر المسافات وتقتصر الزمن تخاطب أهل دنيا بأمر الآخرة أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، تنساب الآيات في هدوء ترسم الدنيا

¹ السيد قطب : في ظلال القرآن، ج 3 ، ص 1586

في مشاهد تسلب الأبواب ، نعم الله ماثورة في ثنايا الكون المسخر للإنسان ثم تتداخل
خيوط الدنيا بالآخرة فهذا سياق السورة ويرسم لوحته السيد قطب في تعليقه على هذه
السورة فيقول: "أما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات ، و المجال الذي تجري
فيه الأحداث فهو فسيح شامل...هو السماوات و الأرض و الماء الهائل و الشجر
النامي . و الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم. و البحار و الجبال و المعالم
و السبل و الأنهار. وهو الدنيا بأحداثها و مصائرنا و الأخرى بأقذارها و مشاهدنا .
وهو الغيب بألوانه و أعماقه في الأنفس و الآفاق. وفي هذا المجال الفسيح يبدو سياق
السورة و كأنه حملة ضخمة للتوجيه و التأثير واستجاشة العقل و الضمير"¹
وحيثما نعيد قراءة الآية السابقة على ضوء هذا السياق تكاد تكون خلاصة لمعاني
السورة وعبارة التضمين فيها مفصلية فتجد الفعل (يستحبون) يكشف لنا نفسية أولئك
الذين يرغبون في الدنيا وينغمسون فيها فيؤثرونها على الآخرة فيضلوا ولا يهديهم الله.
ا ويقول الطبري: " حل بهؤلاء المشركين غضب الله، ووجب لهم العذاب العظيم، من
أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، و لأن الله لا يوفق القوم الذين
يجحدون آياته مع إصرارهم على جحودهم... ".²

¹ السيد قطب : في ظلال القرآن ، ج 4 ، 2159
² الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن ، ج 17 ، ص 305

و الكثير من المفسرين قد رأى في هذه الآية الكريمة مع معنى الاستحباب معنى

الاختيار¹ ومعنى الإيثار²

ويرى الرازي بأن الفعل استحب في هذه الآية أفاد الترجيح حيث يقول: "...ذلك بأنهم

استحبوا الحياة على الآخرة أي رجّحوا الدنيا على الآخرة..."³

وأما الطاهر بن عاشور فهو يرى في الفعل معنى المفاضلة فيقول: "استحبوا مبالغة

في (أحبوا) مثل استأخر و استكان. و ضمن (استحبوا) معنى (فضّلوا) فعدى بحرف

(على) ، أي لأنهم قدموا نفع الدنيا على نفع الآخرة لأنهم استقر في قلوبهم أحقية

الإسلام و ما رجعوا عنه إلا خوف الفتنة أو رغبة في رفاهية العيش فيكون كفرهم أشد

من كفر المستصحبين للكفر من قبل البعثة"⁴

ونخلص من خلال هذا العرض السريع لتعامل المفسرين مع الفعل استحب في الآية

السابقة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى الأفعال الآتية: اختار ، آثر ، رجّح ،

وفضل، و قدم كل ذلك مصحوبا بالإقرار و الإصرار وهذه الأجواء تتناسب مع أجواء

السورة بمجملها فالسورة ترسم لنا مشهدين مختلفين مشهد تتعاقب فيه نعم الدنيا بنعم

الآخرة.

¹ ينظر: أبو محمد الفيرواني: الهداية إلى بلوغ النهاية، ج6، ص4096، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص192، تفسير ابن عباس، ج12، ص231، إعراب القرآن و بيانه: ج5، ص373،

² ينظر: ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي: أنوار التنزيل و أسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمان المرشلي، درا إحياء التراث العربي، -بيروت، ط الأولى: 1418هـ، ج3، ص442 و، ابن جزى التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص436، ابن عجيبة: البحر المديد، ج3، ص167، البفاعي: نظم الدرر، ج11، ص260

³ الرازي: مفاتيح الغيب، ج20، ص276.

⁴ طاهر بن عاشور: التحرير و التنوير، ج14، ص296

الآية الثالثة والرابعة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ إبراهيم: 3

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: "إنما قال يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة لأنه فيه إضمارا و التقدير: يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة فجمع تعالى بين هذين الوصفين..."¹

فالفعل (استحب) قد تضمن معنى الايثار، ايثار الدنيا على الآخرة وبحسب الرازي فإن حب الدنيا ليس مذموما وإنما المذموم حينما نستصحب هذا الحب بإيثار الدنيا على الآخرة وبالتضمين جمعت لنا هذه الآية هذين المعنيين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ

الهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ فصلت: 17

يكاد ما قيل على الآية الثانية يقال عن هاتين الآيتين في تضمين الفعل معنى

الاختيار الايثار والتفضيل ، وإن كان قد لفت انتباهنا في الآية الأخيرة استعمال لفظة

العمى مقابلة للهدى ، وحينما نعود إلى سياق الآية نجدها تدور حول الدلائل الكونية

على وجود الله وتصرفه ، ففي السورة آيات كونية لا ينكرها إلا من أصيب بالعمى

عمى البصيرة الذي يحجب الآيات عن قلب غاب في الغي و الغفلة والأطرف حينما

¹ فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ، ج19 ، ص 61

تختم السورة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يُكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ فصلت: 53

ومن خلال هذا التحليل الموجز للآيات السابقة نخلص إلى أن تركيب (استحبعلى) تدل على المحبة و المفاضلة و الايثار و الاختيار ولا يمكن قصر الفعل استحب في السياق القرآني على المحبة فقط ذلك لأن حب الدنيا ليس مذموماً لذاته فهو مركز في فطرة الانسان مصداقاً لقوله تعالى

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ﴿١٤﴾ آل عمران: 14

وختاماً فلا يمكن لمن تدبر تصرف التضمين في القرآن الكريم وتدبره مستعينا بالسياق القرآني أن يغفل عن مفصلية تلك الآيات التي احتضنت التضمين في سور القرآن كما لا يمكن أن تغفل عن طريقته البيانية في تنبيه العقل واستفرازه ودفعه للتدبر يكاد يكون التضمين منبهاً أسلوبياً يلفت انتباه القارئ يستوقفه يربك رتابة القراءة ويوقف القارئ على الاسترسال في التلاوة ويدعوه إلى التأمل و التدبر.

خاتمة

خاتمة

وفي الختام فقد حاولنا في هذه الدراسة أن نبين ظاهرة التضمين من السياق القرآني وتجليه مثار الجدل الثائر حول هذا المصطلح وكيف تجاذبته علوم اللغة وخاصة علم النحو وعلم البيان، ثم وضحنا تدخل السياق القرآني في تحديد المعنى المتضمن وتدخل التضمين في توجيه معنى الآية من القرآن.

وأهم ما توصلنا إليه النتائج التالية:

أولاً: بدا لنا أن التضمين ظاهرة لسانية لا ينظر إليها إلا بتضافر المقولات النحوية مع

معطيات علم البيان ولا يمكن الفصل بينهما وخاصة إذا نظرنا إلى النحو من حيث

هو أداة للتحليل و الفهم وإلى البيان من حيث هو أداة يتلمس بها جمال الكلام.

ثانياً : نرى أن الصواب قد حالف كمال باشا إذ جعل التضمين النحوي هو ذاته

التضمين البياني فهما ظاهرة واحدة منظور إليها من زاويتين

ثالثاً: تخريج الأفعال على التضمين في كتاب الله عزّوجل يجنبنا القول بالزيادة أو

التناوب الذي يجيز استبدال حرف بحرف في كتاب الله وفي ذلك ادعاء مساواة عبارة

المفسر للعبارة القرآنية. وهذا لا يليق بالنص القرآني المتفرد في نظمه و تركيبه

فالألفاظ القرآنية تأخذ مكانها اللائق بها كما أن التضمين يجعل الآية أكثر انفتاحاً من

الناحية الدلالية.

رابعاً : لاحظنا أن العبارة التضمينية في القرآن الكريم كثيرا ما تأتي مختصرة موجزة لأهم معاني السورة ، و أحيانا نجدها بموضع مفصلي في السورة كأنها تمهد الانتقال من موضوع إلى آخر

خامساً : يعمل التضمين في السور الطويلة على كسر نفس التلاوة ، فصورة التركيب غير المهودة وتجاوز المؤلف من العبارات يستوقف العقل متدبرا ويستقره إلى محاولة تجاوز ذلك الاضطراب باستحضار ما يناسب العبارة من معاني ومن ثم يتحقق التدبر في الآية الكريمة.

سادساً : يظل الأثر الدلالي و الجمالي لأسلوب التضمين ماثلا في ذهن المتلقي، وهذا على مراحل ثلاثة : فالتضمين يثير انتباه المتلقي بخروج تركيبه اللغوي عن المستوى المؤلف و البنية المعيارية المثالية، فيتفاعل المتلقي مع الصياغة لمعرفة دواعي هذا التجاوز، ومن ثم يساهم في انتاج الدلالة وتكثيف الأثر الجمالي. وفي الختام أطلب العليم القدير أن أكون قد وفقت في دراستي هذه بعض التوفيق وأبنت بعض الابانة عن ما يتعلق بهذه الظاهرة اللسانية التي استهوت وراودت أئمة البيان.

فهرس المصادر والمراجع

المصادر و المراجع

• القرآن الكريم

1	آيفور أرمسترونغ ريتشاردز : فلسفة البلاغة ، ترجمة : سعيد الغانمي و ناصر حلاوي ، أفريقيا الشرق - المغرب ، 2002 .
2	إبراهيم السامرائي فقه اللغة المقارن، دار العلوم للملايين ، بيروت ، ط 3 ،
3	إبراهيم بن إسماعيل الأبياري : الموسوعة القرآنية ، مؤسسة سجل العرب ، ط 1405
4	ابن تيمية: <u>دقائق التفسير الجامع لتفسير</u> الإمام ابن تيمية، تحقيق محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط2، 1404هـ/1984م،
5	ابن جزى الكلبي : التسهيل لعلوم التنزيل ، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، لبنان بيروت ط 1 ، 1995
6	ابن جني ، <u>العروض</u> ، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم - الكويت، 1987/1407
7	ابن دقيق العيد : إحكام الأحكام في شرح عمدة الأحكام، مطبعة السنة المحمدية ، ب ط ، ب ت .
8	ابن سيدة ، <u>المحكم و المحيط الأعظم</u> ، تحقيق :محمد الهنداوي -دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان، ط2000م
9	ابن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت - ، ط 1 ، 1422هـ
10	ابن فارس، <u>معجم مقاييس اللغة</u> ، تحقيق عبد السلام هارون -دار الفكر- ط 1979/1399
11	ابن قديم الجوزية : بدائع الفوائد ، ج 4 ، ص 13
12	ابن منظور: <u>لسان العرب</u> ، دار المعارف -القاهرة، تحقيق نخبة من الأساتذة :عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي ،
13	أبو البركات النسفي : " مدارك التنزيل في حقائق التأويل (تفسير النسفي) ، تحقيق : يوسف علي بديوي ، دار الكلم الطيب -بيروت- ، ط 1 ، 1419هـ / 1998م

14	أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: <u>تفسير النسفي</u> ، دار النفائس 2005 ، تحقيق مروان محمد الشاعر
15	أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفومي : كتاب الكليات معجم في المصطلحات و الفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش -محمد المصري، مؤسسة الرسالة -بيروت - 1419هـ/1998م،
16	أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي: <u>الأصول في النحو</u> ، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط3، 1988
17	أبو العباس أحمد بن عجيبة : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، تحقي أحمد عبد الله
18	أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمن الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، تحقيق: أحمد محمد الخراط ، دار القلم -دمشق
19	أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي : الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط2 : 1384هـ/1964
20	أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي: <u>فيض نشر الانشراح في روض طي الاقتراح</u> ، تحقيق وشرح محمود يوسف فجّال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ، الامرات العربية المتحدة - دبي ، ط1/ 1421هـ - 2000م
21	أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : <u>الحيوان</u> ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، 1416 / 1996 لبنان / بيروت
22	أبو علي الحسن بن الرشيق القيرواني، <u>العمدة في صناعة الشعر ونقده</u> ، تحقيق وتعليق: النبوي عبد الواحد سعلان، مكتبي الخانجي-القاهرة- ط1: 2000/1420 .
23	أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلبي (ابن الأثير)، <u>المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر</u> ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت - 1995
24	أبو الفتح عثمان ابن جني: <u>الخصائص</u> ، تحقيق: د/عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت_لبنان، ط2: 2003_1424
25	أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي: <u>روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني</u> ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان

26	أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: <u>الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل</u> ، مع : حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين الحسيني الجرجاني، انتشارات آفتاب_تهران_دت ، دط
27	أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية -بيروت ، ط 1 ، 1422هـ .
28	أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري: <u>مغني اللبيب عن كتاب الأعريب</u> ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر ة التوزيع، القاهرة.
29	أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، تحقيق مجموعة رسائل جامعية بإشراف الشاهد البوشيخي ، جامعة الشارقة ، ط 1 ، 1429هـ / 2008م .
30	أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، <u>يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر</u> ، تحقيق محمد محي الدين، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة- 1956.
31	أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، <u>الصناعتين الكتابة والشعر</u> ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية -بيروت 1406 / 1986
32	أحمد حسن حامد، <u>التضمنين في العربية بحث في البلاغة و النحو</u> ، الدار العربية للعلوم ،طبعة الأولى 2001/1422 .
33	استيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ترجمة الدكتور كمال بشر،المقاهرة ، مكتبة الشباب .
34	الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: <u>البرهان في علوم القرآن</u> ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا_بيروت .
35	الإمام عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البياغن ، صححها السيد محمد رشيد رضا ،دار المعرفة بيروت لبنان.
36	الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ، <u>سر الفصاحة</u> ، دار الكتب العلمية 1402هـ/1982م .
37	إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، <u>المعجم الوسيط</u> ، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة،

38	برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: <u>نظم الدرر في تناسب الآيات و السور</u> ، دار الكتب العلمية، بيروت ،تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، ط 1415هـ/1995م .
39	تمام حسان: <u>الأصول دراسة استيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو - فقه اللغة - البلاغة</u> ، عالم الكتب، 1420هـ/ 2000م.
40	تمام حسان: وحدة البنية و اختلاف الأنظمة ،مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مجلد57
41	جلال الدين السيوطي: <u>الأشباه و النظائر في النحو</u> ، اعتنى به محمد فاضلي، دار أبحاث للترجمة و النشر و التوزيع _الجزائر_ ط1: 2007.
42	جلال الدين السيوطي: المزهرة في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم ،محمد جاد المولى، علي محمد البجاوي ،المطبعة العصرية صيد -لبنان ، 1428/2007
43	جمال الدين ابن هشام الأنصاري : مغني اللبيب وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار الفكر.
45	الحسن بن قاسم المرادي : <u>الجنى الداني في حروف المعاني</u> ، تحقيق: فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان ، ط1، 1413 / 1992.
46	حسين شرف: <u>ظاهرة دخول حروف الجر بعضها مكان بعض</u> ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج55، نوفمبر 1983.
47	رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور ،منشأة المعارف الإسكندرية، ط1 ،د/ت
48	د/ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، 1423.
49	الرضي الاسترابادي: <u>شرح الرضي على كافية ابن الحاجب</u> ، تحقيق: عبد العال سالم ، عالم الكتب -القاهرة- ط1، 1421/2000.
50	الزبيد: <u>تاج العروس من جواهر القاموس</u> ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط1385/1965
51	الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ومعه حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين الدين أبي الحسن الحسيني الجرجاني"

سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : <u>الكتاب</u> ، تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت، ط الأولى، د ت،	52
سيد قطب إبراهيم حين الشاربي : في ظلال القرآن ، دار الشروق -بيروت- لبنان ، ط 17 ، 1412هـ	53
شمس الدين محمد بن أبو بكر ابن قيم الجوزية : <u>بدائع الفوائد</u> ، راجعه محمد عبد القادر الفاضلي وأحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا-بيروت، 2003/1424.	54
شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، <u>نهاية الأرب في فنون الأدب</u> ، تحقيق: مفيد قميحة دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان ، ط1 : 2004/1424 .	55
62- شوقي ضيف: <u>المدارس النحوية</u> ، دار المعارف _مصر_ ط2، 1975، .	56
صلاح الدين الزعبلوي: <u>التضمين</u> ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلة المجمع العلمي العربي سابقا، المجلد 55، ج1/ص70	57
ضياء الدين بن الأثير: <u>المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر</u> ، تحقيق أحمد الحوفي، بداوي طبانة، دار النهضة -مصر	58
د / عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، رؤية للنشر و التوزيع -القاهرة، ط1 ، 2007 .	59
د- / عبد الحكيم عبد الله القاسم : رسالة السياق القرآني و أثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، دار التدمرية ، ط1 ، 2012/1433 .	60
عبد الحكيم عبد الله القاسم: رسالة السياق القرآني و أثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير دار التدمرية ، ط1 ، 1433هـ / 2012 م .	61
عبد الرحمان الحاج صالح : بحوث ودراسات في علوم اللسان ، موفم للنشر - الجزائر ، 2007 .	62
عبد الرحمن بن خلدون: <u>المقدمة</u> ، دار الكتب العلمية بيروت_لبنان ، ط9، 1467هـ/ 2006م،.	63
عبد السلام المسدي: الأسلوب و الأسلوبية ، طبعة منقحة ومشفوعة، الدر العربية للكتاب ، ط 3 .	64

65	عبد الغاني بارة: <u>الهرمينوطيقا و الفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي</u> ، الدار العربية للعلوم بيروت_ الطبعة الأولى: 2008/1439 .
66	عبد القادر الفاسي الفهري : المعجمة و التوسيط نظرات جديدة في قضايا اللغة العربية ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1993 .
67	عبد القادر بن عمر البغدادي، <u>خزانة الأدب و لب لباب لسان العرب</u> ، تحقيق محمد نبيل طريفي و إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت 1998.
68	عبد القاهر الجرجاني : <u>دلائل الإعجاز في علم المعاني</u> ، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة لعصرية صيدا -بيروت، ط1 1421هـ/2000م.
69	عبد المتعال الصعيدي: <u>بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة</u> مكتبة الآداب القاهرة ، ط 10 ، 1420هـ/1999م .
70	عبد الواحد الشيخ : <u>العلاقات الدلالية و التراث البلاغي العربي</u> ، مطبعة الاشعاع الفني ، الطبعة الأولى 1419هـ/1999م .
71	عبد الوهاب رشيد صالح أبو صفية : <u>دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن</u> ، دار عمار للنشر و التوزيع ، 2012 .
72	علاء بن محمد المعروف بالخازن : <u>لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)</u> ، تحقيق محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية -بيروت- ط 1 ، 1415 .
73	علاء الدين بن محمد الخازن : <u>لباب التأويل في معاني التنزيل</u> ، تحقيق محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية -بيروت ، ط الأولى : 1415 .
74	علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الخازن: <u>لباب التأويل في معاني التنزيل</u> ، دار الفكر بيروت_لبنان 1399هـ/1997م .،
75	علي بن سليمان الحيدرة اليمني: <u>كشف المشكل في النحو</u> ، تعليق د/هادي عطية مطر، ط1: 1984/1404
76	علي بن محمد علي الجرجاني، <u>التعريفات</u> ، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، 1405هـ .
77	فاضل صالح السمرائي: <u>معاني النحو</u> ، شركة العاتك لصناعة الكتاب.
78	فريد عوض حيدر: <u>علم الدلالة</u> ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ط2 ، 1999 .

79	فندريس : اللغة ترجمة عبد الحميد الدواخلي وزميله ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية.
80	فوزي عيسى ،رانيا عيسى : علم الدلالة النظرية والتطبيقية، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، ط1
81	القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1 : 2001/1422 .
82	مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم : محمد عبد الله الدراز، محمود محمد شاكر، دار الوعي -الجزائر ، ط1 ، 1434هـ/2013 م .
83	محمد جمال الدين الحلاق القاسمي: محاسن التأويل، محقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط 1 ، 1418هـ .
84	محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين ، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط3/1971، مج5،.
85	محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي: أصول السرخسي، دار المعرفة - بيروت .
86	د/ محمد الحناش : البنيوية في اللسانيات ، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ، ط1 : 1401هـ
87	محمد بن علي الصبان "حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني" ،دار إحياء الكتب العربية القاهرة .
88	محمد بن عمر بن الحسين الرازي: المحصول في علم الأصول ، تحقيق طه جابر فياض العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية _الرياض_ ط1 : 1400هـ .
89	محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار) ، دار الفكر العربي ، مصر القاهرة ، ط 2 ، 1997/1417 .
90	محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية انظم المعرفة في الثقافة العربية ،مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء بيروت، ط7، 2004.
91	محمد عبد الرؤوف الماوي، التوقفي على مهمات التعريف ، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر -بيروت ، ط1 ، 1410هـ.
92	محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم الكويت ، د ط ..

93	محمد مشال: البلاغة و لأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي ابن جني نودجا ، دار أفريقيا الشرق المرب 2007
94	محمد نديم فاضل: التضمن النحوي في القرآن الكريم، دار الزمان للنشر والتوزيع، ط1، 1426هـ/2005م.
95	محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الاسلامي، بيروت- لبنان ، ط2: مارس 2007.
96	محي الدين بن أحمد مصطفى درويش: إعراب القرآن و بيانه دار الارشاد للشؤون الجامعية -حمص- ط 4 ، 1415هـ

فهرس الموضو عات

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الرقم
02	مقدمة	01
07	مدخل	02
19	الفصل الأول: التضمين النحوي	03
20	مفهوم التضمين النحوي	04
24	تطور مفهوم التضمين النحوي	05
36	التضمين و تناوب الحروف	06
38	تعريف الحرف	07
41	معاني حروف الجر	08
47	المعاني المشتركة بين حروف الجر	09
55	خلاصة	10
56	التضمين و ظاهرتي التعدية و اللزوم	11
57	تعريف لفعل اللازم	12
60	الآليات التي تجعل اللازم متعديا	13
61	فضل التضمين عن غير من المعديات	14
62	تعريف الفعل المتعدي	15

73	التعدية بين التضمين ونزع الخافض	16
75	خلاصة	17
79	مفهوم التضمين البياني	18
82	التضمين بين علم البيان وعلم النحو	19
85	التضمين و أبواب علم البيان	20
86	التضمين بين الحقيقة و المجاز	21
89	التضمين و الكناية	22
94	التضمين و الاستعارة	23
100	التضمين والمجاز المرسل	24
110	التضمين وشجاعة العربية	25
113	قياسية التضمين	26
114	فائدة التضمين	27
122	الفصل الثالث: التضمين والسياق القرآني	28
123	مفهوم السياق	29
126	أنواع السياق	30
130	السياق القرآني	31
140	أثر السياق القرآني في التضمين	32

143	نماذج تطبيقية على آيات من القرآن الكريم	33
162	فهرس المصادر و المراجع	34
171	فهرس الموضوعات	35